

نوادير التراث

أسرار تنزيه القرآن

للمحافظ جلال الدين السيوطي

١٨٤٩ هـ - ٩١١ هـ

تحقيق الأستاذ الدكتور
محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن
الشيخ



دراسة وتحقيق

عبد القادر أحمد عطية
مرزوق علي إبراهيم



دار الفضيحة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢٨٧٦

جميع الحقوق محفوظة للنَّاشِر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى أنزل الكتاب متناسباً سورة وآياته ، متشابهاً فواصله وغاياته ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذى تمت كلماته ، وعمت مكرماته وأشهد أن سيدنا محمداً عبده الذى خُتِمَتْ به نُبُوءَاتُهُ ، وكملت برسالته رسالاته ، توالى عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأحبابه صلواته ، وتواتر تسليمه وبركاته ما دامت حياته وبقيت ذاته وصفاته . . وبعد :

فهذا كتاب لطيف ، تناول فيه مؤلفه من علوم القرآن ، ألا وهو ترتيب السور وتناسقها ومناسباتها ، وإيضاح ما فى ذلك من إعجاز وبيان ومقاصد ، وسوف يتجلى لنا من خلال عرض هذا الكتاب الدقائق التى فتح الله بها على مصنفه ، وتلكم اللمحات الزكية التى أكثرها من نتاج فكره ، وولاد نظره ، وغير ذلك من فوائد ، يجنيها القارئ .

وقد قلَّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته ؛ وعن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى^(١) فى تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط .

وقال بعض الأئمة : من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ، لِئَلَّا يكون منقطعاً .

وهذا النوع يهمله بعض المفسرين ، أو كثير منهم ، وفوائده غزيرة ، قال

(١) ترجمته فى مقدمة المصنف ، وقد أكثر السيوطى النقل عنه

القاضى أبو بكر بن العربى ^(١) : ارتباط أى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعانى ، منتظمة المباني ، علم عظيم ، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حَمَلَة ، ورأينا الخلف بأوصاف البطلة ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه ^(٢) .

ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً ، وأبسَق فرعاً ، وأحلى جنى ، وأعذب وزداً ، وأكرم نتاجاً ، وأنور سراجاً ، من علم البيان ، الذى لولاه لم ترَ لساناً يحوك ^(٣) الوشى ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدرر ، وينفث السحر ، ويقرى ^(٤) الشهد ، ويريك بدائع من الزهر ، ويعجنيك الحلو اليانع من الثمر ، والذى لولا تحفیه ^(٥) بالعلوم ، وعنايته بها ، وتصويره إيائها ، لبقيت كامنة مستورة ولما استبنت لها يد الدهر ^(٦) صورة ، ولا استمر السرار ^(٧) بأهلتها واستولى الخفاء على جملتها ، إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء ^(٨) .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام ^(٩) : المناسبة علم حسن ؛ ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر ^(١٠) .

(١) ترجمته فى مقدمة المصنف أيضاً .

(٢) البرهان فى علوم القرآن (١/٣٥ - ٣٦) .

(٣) أى : ينسج . (٤) يقرى : يجمع .

(٥) تحفى بفلان : احتفل .

(٦) يقولون : لا أفعله يد الدهر ، أى لا أفعله أبداً .

(٧) السرار بالكسر ، اختفاء القمر فى آخر ليلة فى الشهر .

(٨) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ٥ - ٦ .

(٩) هو الإمام عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز ، والملقب بسلطان العلماء ، توفى سنة

٦٦٠ هـ ، ترجمته فى طبقات الشافعية (٥/٨٠) .

(١٠) البرهان فى علوم القرآن (١/٣٧) .

وقال برهان الدين إبراهيم البقاعي^(١) : «وعلم المناسبات الأهم من مناسبات القرآن وغيره : علم تعرف منه علل الترتيب ، وموضوعه : أجزاء الشيء المطلوب علمُ مناسبته من حيث الترتيب ، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه ، وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب ، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال ، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها ؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة ، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو»^(٢) .

أمّا ترتيب السور : فقد اختلف العلماء في ترتيب السور :

* فالقول الأول : إنه توقيفي ، تولاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أخبر به جبريل عن أمر ربه ، فكان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرتب السور ، كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذي لدينا اليوم ، وهو ترتيب مصحف عثمان الذي لم يتنازع أحد من الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة والإجماع .

* والقول الثاني : إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة ، بدليل اختلاف مصاحفهم في الترتيب ، كمصحف ابن مسعود ، ومصحف أبي .

* والقول الثالث : إن بعض السور ترتيبه توقيفي ، وبعضه باجتهاد من الصحابة ، حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة ، فقد

(١) هو الإمام العالم العلامة ذو الفنون العديدة ، والتصانيف المفيدة ، والأقاويل السديدة ، أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط على بن أبي بكر البقاعي ، توفي سنة ٨٨٥ هـ ، ترجمته في : الضوء اللامع (١٠١/١) ووجيز الكلام (٩٠٩/٣ ، ٩١٠) .
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/١) .

ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصل في حياته عليه الصلاة والسلام .

وقد ناقش بعض العلماء^(١) هذه الآراء الثلاثة ، وانتهى إلى ما يلي :

- أن الرأي الثانى الذى يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يعتمد عليه .

فاجتهاد بعض الصحابة فى ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختياراً منهم قبل أن يجمع القرآن جمعاً مرتباً ، فلما جمع فى عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد ، واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم ، ولو كان الترتيب اجتهادياً لتمسكوا بها .

وحديث ابن عباس رضى الله عنهما : « قلت لعثمان : ما حلكم على أن عمدتم الأنفال وهى من المشانى ، وإلى براءة وهى من المثين فقرنتم بينها ... »^(٢) .

وهذا الحديث يدور إسناده فى كل رواياته على « يزيد الفارسى » الذى يذكره البخارى فى الضعفاء ، وفيه تشكيك فى إثبات البسمة فى أوائل السور ، كأن عثمان كان يشبها برأيه ، وينفيها برأيه ، ولذا قال الشيخ أحمد شاکر فى تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد : « إنه لا أصل له » .

وغاية ما فيه أنه يدل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط^(٣) .

- أما الرأي الثالث : الذى يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفى ، وبعضها ترتيبه اجتهادى ، فإن أدلته تركز على ذكر النصوص الدالة على

(١) هو الشيخ : مناع خليل القطان فى كتابه : مباحث فى علوم القرآن ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) تخريج الحديث فى مطلع سورة الأنفال .

(٣) وقد ذهب البيهقى إلى ذلك حيث قال : « كان القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم مرتباً سورة وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان رضى الله عنه .

ما هو توقيفى ، أما القسم الاجتهادى فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادى . إذ أن ثبوت التوقيفى بأدلته لا يعنى أن ما سواه اجتهادى . مع أنه قليل جداً .

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفى كترتيب الآيات ^(١) .

وقال أبو بكر بن الأنبارى ^(٢) : « أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرقه في بضع وعشرين ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبر ، ويوقف جبريل النبى صلى الله عليه وآله وسلم على موضع الآية والسورة ، فانساق السور كانساق الآيات والحروف كله عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فمن قَدَم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن » ^(٣) .

وقال الزركشى : قال بعض مشايخنا المحققين : قد وهم من قال : لا يُطلب للآى الكريمة مناسبة ؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً ، فالمصحف كالصحف الكريمة على ما فى وفق الكتاب المكنون ، مُرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف ، وحافظ القرآن العظيم لو استفتى فى أحكام متعددة ، أو ناظر فيها ، أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يَتَلَّ كما أفتى ، ولا كما نزل مفرقاً ؛ بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه ، ونظمه الباهر فإنه ﴿ كَتَبَ أَحْكَمَتْ ءَإِنْتُمْ نُمُ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] .

قال : والذي ينبغى فى كل آية أن يبحث عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ، ثم المستقلة ؛ ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففى ذلك عِلْمٌ جَمٌّ ، وهكذا فى السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سبقت له .

(١) مباحث فى علوم القرآن ، لمناع القطان (١٤١) وما بعدها .

(٢) ترجمته فى مقدمة المؤلف .

(٣) البرهان فى علوم القرآن (٢٦٠/١) ، والجامع لأحكام القرآن (٦٠/١) ، والإتقان (٦٠/١) .

وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى ؛ كافتتاح سورة الأنعام بالحمد ، فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] وكافتتاح سورة فاطر بـ ﴿ الْحَمْدُ ﴾ أيضًا ، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ : ٥٤] ؛ وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [] ، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به [﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾] .

وكافتتاح البقرة بقوله : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَّآ رَيْبَ فِيهِ ﴾ إشارة إلى ﴿ الصِّرَاطِ ﴾ في قوله : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ؛ كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم ، قيل لهم : ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو الكتاب .

وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة ^(١) .

... ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها (الماعون) ؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمر أربعة : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة ؛ فذكر هنا في مقابلة البخل : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ : أى الكثير .

وفي مقابلة ترك الصلاة ﴿ فَصَلِّ ﴾ أى دُم عليها .

وفي مقابلة الرياء ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ : أى لرضاه ، لا للناس .

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٨) .

وفي مقابلة الماعون : ﴿وَأَنْحَرْ﴾ ؛ وأراد به التصديق بلحم الأضاحي ،
فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ^(١) .

وكذلك مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح ، وسورة الكهف بالتحميد ؛
لأن التسبيح حيث جاء مقدّم على التحميد ؛ يقال : سبحان الله ، والحمد لله ^(٢) .

هذا ، وأسأل الله أن ينفع بهذا العمل ، وأن يرد الأمة الإسلامية إلى
كتابها الكريم ، وهذا الفرقان ، معتصمة به ، تالية له ، ومتدبرة لما فيه ،
وتمسكة بسنة نبيّها خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وما كان
عليه السلف الصالح من الصحابة ومن تبعهم ، فلا معين إلا الله ، ولا دليل
إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه ، ولا عزّ لنا
إلا في إسلامنا ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

مَرْزُوقٌ عَلَى اللَّهِ هَمٌّ

في مساء الجمعة
٢٦ محرم ١٤٢٢ هـ .
٢٠ أبريل ٢٠٠١ م .
مدينة نصر - القاهرة

(١) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي) (٧٠١/٨) وكذا البرهان في علوم القرآن (٣٩/١) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣٩/١) .

نُبذةٌ عَنْ مُصْحَفِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

من المآثر الخالدة لدى الثَّوَرَيْنِ ما فعله حين جمع الناس على مصحف واحد ، وجمع القرآن فيه ؛ وبذلك صلح أمر الناس من السلف والخلف ؛ ولولا الذي فعله عثمان رضى الله عنه لألحد الناس فى القرآن إلى يوم القيامة ، كما قال الحسن البصرى .

قال الزركشى : وقد اشتهر أن عثمان هو أول من جمع المصاحف ؛ وليس كذلك ، بل أول من جمعها فى مصحف واحد الصديق ، ثم أمر عثمان حين خاف الاختلاف فى القراءة بتحويله منها إلى المصاحف ^(١) .

وقال القاضى أبوبكر الباقلانى ^(٢) فى « الانتصار للقرآن » : « لم يقصد عثمان رضى الله عنه قَصْدَ أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين ؛ وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أُثِبَتْ مع تنزيل ، ومنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بَعْدُ » ^(٣) .

والذى حمل الصحابة رضوان الله عليهم على جمع القرآن ما جاء فى الحديث أنه كان مفرقا فى العُسب ، واللَّخاف وصدور الرجال ، فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته فجمعوه وكتبوه ، كما سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم ، من غير أن يُقَدِّمُوا شيئا أو يُؤَخِّرُوا ، وهذا الترتيب كان منه

(١) البرهان فى علوم القرآن (٢٣٥/١) وما بعدها .

(٢) ترجمته فى مقدمة المصنّف .

(٣) الانتصار للقرآن ، للباقلانى (١١/١ ، ١٢) وتناول المؤلف فضل أبى بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم جميعا فى كتابه هذا (٩٧/١) ، وما بعدها .

صلى الله عليه وسلم بتوقيف لهم على ذلك ؛ وأن هذه الآية عقب تلك الآية ، فثبت أن سعى الصحابة في جمعه في موضع واحد ، لا في ترتيبه ؛ فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب الذى هو في مصاحفنا الآن ، أنزله الله جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] ، ثم كان ينزل مفرقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته عند الحاجة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَفَرَّغْنَا فَرْقَتَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة ؛ وكان هذا الاتفاق من الصحابة سبباً لبقاء القرآن في الأمة ، ورحمة من الله على عباده ، وتسهيلاً وتحقيقاً لوعده بحفظه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وزال بذلك الاختلاف ، واتفقت الكلمة .

ولقد كانت قراءة أبى بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة ، كانوا يقرءون القراءة العامة ، وهى القراءة التى قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل مرتين في العام الذى قبض فيه ، وكان زيد قد شهد العرضة الأخيرة ، وكان يقرئ الناس بها حتى مات ، ولذلك اعتمده الصديق في جمعه ، وولاه عثمان كتابة المصحف .

وروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : رحم الله أبا بكر ! هو أول من جمع بين اللوحين ، ولم يحتج الصحابة في أيام أبى بكر وعمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان ؛ لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان ، ولقد وُفق لأمر عظيم ، ورفع الاختلاف وجمع الكلمة ، وأراح الأمة . وقد قال عليّ رضي الله عنه : لو وليت ما ولى عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل ^(١) .

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) .

فائدة :

من الأدلة التي ساقها الباقلاني على صحة نقل القرآن وصحة تأليفه وترتيبه :

« وما يدل على دت قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، وقوله : ﴿ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ ﴾ [القيامة : ١٧] وقد ثبت بإجماع الأمة منّا ومنهم أن الله تعالى لم يرد بهاتين الآيتين أنه تعالى يحفظ القرآن على نفسه ولنفسه ، وأنه يجمعه لنفسه ، وأهل سمواته دون أهل أرضه ، وأنه إنما عني بذلك أنه يحفظه على المكلفين للعمل بموجبه ، والمصير إلى مقتضاه ومتضمنه ، وأنه يجمعه لهم فيكون محفوظاً عندهم ، ومجموعاً لهم دونه ، ومحروساً من وجوه الخطأ والغلط والتخليط والإلباس ؛ وإذا كان ذلك كذلك وجب بهاتين الآيتين القطع على صحة مصحف الجماعة ، وسلامته من كل فساد ولبس ؛ لأنه لو كان مغيراً أو مبدلاً أو منقوصاً منه أو مزيداً فيه ، ومرتباً على غير ما رتبته الله سبحانه ؛ لكان غير محفوظ علينا ، ولا مجموع لنا ، وكيف يسوغ لمسلم أن يقول بتفريق ما ضمن الله جمعه ، وتضييع ما أخبر بحفظه » ^(١) .

(١) الانتصار للقرآن ، للباقلاني (١/٦٣) .

عَمَلُنَا فِي هَذَا كِتَابٍ

كان العمل في تحقيق هذا الكتاب على النهج التالى :

* قابلنا النسخة المطبوعة بتحقيق الأستاذ عبد القادر عطا (وهى نسخة دار الكتب المصرية) على نسخة دمشق^(١) المطبوعة ، التى اعتمد محققها على نسخة الظاهرية .

* رمزنا لنسختنا المصرية بـ « المطبوعة » .

* رمزنا لنسخة دمشق بـ « ظ » ، وتميزت هذه النسخة بأنها أتم من النسخة المصرية فى الغالب ، وفيها ترضية على الصحابة ، وبعد ذكر : النبى ، أو الأنبياء يأتى بعد ذلك : « عليه السلام » أو « عليهم السلام » وكذلك حينما يأتى ذكر العلماء ، يأتى بعدهم بـ « رحمه الله » فضلاً عن الثناء على الله تعالى ، إذا ذكر الله عز وجل .

* وضعنا الزيادة من نسخة « ظ » بين معقوفين ، وكذلك إذا كانت هناك إضافة من الأصول ، أو تنمة لنقص وضعناها كذلك بين معقوفين .

* أبقينا التعليقات التى علق عليها الأستاذ عبد القادر عطا ، وإن كان فيها خطأ صوبناه ، وما كان من نقص أتمناه .

* الرجوع إلى المصادر التى أخذ عنها المؤلف ، وكذلك المصادر التى دارت حول هذا الموضوع ، وكل ذلك ساعد على تقويم النص ، وخروجه بشكل أتم مما كان عليه سابقاً .

* قمنا بتصحيح ما وقع من تصحيف ، وتحرير ما وقع من تحريف فى النص .

(١) تحقيق عبد الله محمد الدرويش - دار الكتاب العربى - سوريا - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م .

عَظَمَةُ الْقُرْآنِ وَوَحْدَانِيَّةُ الْمَوْصُوعَةِ

بقلم: عبد القادر أحمد عطا

قالت الجن حينما سمعوا القرآن من النبي ﷺ : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ ^(١) واهتزت عقيدة الشرك في قلب رجل من صناديد الكفر هو الوليد بن المغيرة حينما سمع بعض آياته من الرسول ﷺ ، فقال : « ما هو بقول البشر » ، وفزع أئمة الكفر من قريش حينما شاهدوا تأثير القرآن على القلوب ، فقالوا لزعمائهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) ، وسعى أهل النباهة من فتيان العرب من أمثال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله ، علمني من هذا القرآن » حينما استأسر قلبه لسلطانه ، واستشرف على عتبات الإسلام .

تلك واحدة من دلائل عظمة القرآن هي : سلطانه الروحاني الخفي على القلوب ، وولايته المطلقة على مدارك الإنس والجن على السواء ، وجاذبيته المضئية لقلوب المهتدين والجاحدين جميعًا .

وقد يكون لبعض المكتوبات البشرية سلطان على المشاعر ، وجاذبية للنفوس ، ولكنها لم تصل في ماضى الزمان ، ولن تصل في مستقبله إلى أعماق الروح ، ولا إلى مستقر الإيمان واليقين ، ولا إلى قمة التضحية في سبيلها بالمال والنفس ، كما وصل الرواد الأوائل للإسلام إيمانًا بالقرآن ، ويقينًا بسلطانه ، واستشهادًا في سبيل دعوته ، واحتمالًا لما لا يطيقه بشر في سبيل إعلاء كلمته .

تلك دلالة لا شك فيها من دلائل عظمة القرآن بالنسبة للمؤمنين ،

(١) سورة الجن ، الآيتان : ١ ، ٢ . (٢) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .

يقابلها على نفس الطريق عنف المقاومة لهذا السلطان من جانب الكفار ، وجبروت التعذيب الذى تسلطوا به على المؤمنين فى مطلع الدعوة ، فما لبثوا أن فجروا جديدًا من ينابيع الإيمان بما ابتكروا من وسائل التعذيب ، ووجدوا شتات الدعاة الأوائل تحت راية الرسول ﷺ بما نفثوا من سموم الحقد والعداء ، فكان القرآن هو محور هذا الصراع الرهيب العجيب الذى دارت رحاه على رمال جزيرة العرب ، والذى طاشت فى نهايته أحلام المعارضين على وفرة المال والرجال والسلاح حينما ذلت رقابهم أمام قلة من الرجال ، وقلة من المال ، وإعواز فى السلاح يحدوها طوفان غامر من اليقين ، وإيمان راسخ بالقرآن ، وانطباع كامل بأخلاقه ، فتحطمت إلى الأبد شوكة الكفر ، وشمخ إلى الأبد صرح القرآن .

وثانية الدلائل على عظمة القرآن : صموده أمام دعوات الهدم على مدى التاريخ الطويل ، وتصديه لهجمات الإلحاد الضارية فى ميدان الحرب وفى ميدان الفكر ، فلم تزد تلك الهجمات إلا انطلاقًا إلى آفاق جديدة من الأرض وانبلاجًا لنوره على صدر الزمان ، وأعماقًا بعيدة لجذوره فى القلوب ، ولئن ذبلت فى بعض أحقاب التاريخ همم أهل الحضارة القرآنية تحت تأثير الصدمات المتوالية واستجابة المؤمنين إلى أهواء النفوس ، فما كان هذا الذبول إلا غفوة أعقبها استجماع للقوة ، ورؤية مضيئة لحركة التاريخ كما حددها القرآن ، فعاد الذبول نضارة ، وكان من الضعف قوة ، ومن آمال أهل الإلحاد تمزق وخيبة وانحلال ، وكان من هذا التمزق دفع لمجتمع المؤمنين إلى ذروة التاريخ .

لقد عانت حضارة القرآن تسلط قريش ، وجبروت الروم ، وجدل الفرس ، وسلاح الصليبية ، ولؤم اليهودية العالمية ، وأخيرًا عانت بريق المذاهب السياسية والاقتصادية وأخصها الشيوعية اليهودية ، وكان من أبناء الإسلام أعوان لهؤلاء المتآمرين حاولوا قهر الأعزة على أوهام الشيوعية ، فأعزوا فى سبيل ذلك أهل الأهواء ، ولكن أولئك جميعًا ذلوا

أمام صلابة الحق في القرآن ، وذهلوا حينما عجز المال والسلاح والتكتل الدولي عن النيل من إيمان أهل القرآن .

وثالثة الدلائل على عظمة القرآن بعد الصمود الذي لا يستطيعه إلا الكتاب الحكيم : إنه كتاب حضارة تدرج تحت لوائه الأمم والشعوب ، وتستسلم حضاراتها لحضارته فما تلبث أن يحتويها الإطار الشامل للإسلام الرحيب ، وتتخذ نفس الصفة الشرعية لخير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر داخل النفس وخارجها ، وداخل الأمة وبين الأمم الأخرى ، وتؤمن بالحق والعدل عن الله فيصلاً وحكماً بين الجميع ، فلا عنصرية ولا عصبية ، ولا استمساك بالذات ، بل هو إنكار لها ، وعمل للمجموع مع الاحتفاظ بكرامة الفرد وكيانه بعيداً عن أى لون من ألوان الامتهان .

فعظمة القرآن نابعة من أنه لا يستجدى الشعوب أن يتبعوه ، ولا الحضارات أن تذوب في حضارته ، بل يعرض أمام العالم وجهه السمع الكريم ، ويكشف عن رحابته النادرة بين دساتير الحضارة ، ويعلن حربه الضارية على الظلم وامتهان الإنسان للإنسان ، وامتهان الإنسان لنفسه وعقله ، ويكشف الستر البراق عن عفن اللؤم البشرى ، وعن الحبائل التى ينصبها أعداء العدل ، ومتلصصة الفكر ، أولئك الذين يجاربون الله ورسوله لا لشيء إلا لأن الإيمان بهما يقف سداً منيعاً أمام أطماعهم وشهواتهم التى لا تدع قيمة إلا حطمتها ، ولا مثلاً أعلى إلا شوته وأذلت أهله ، والداعين إليه .

وعلى مر القرون مازال كبار المفكرين فى العالم كله يشيدون بتلك السمة التى استعصى عليهم الجهر بها هذا الرده الطويل من الزمان .

ورابعة الدلائل على عظمة القرآن : سرعته المذهلة فى بناء الحضارات إذا أتيح له من ينفذ تعاليمه من القادة على نفسه وأهله قبل أن ينفذها بين

جمهور المؤمنين ، وهو الأمر الذى أهاب الله تعالى بالمؤمنين أن يحرصوا عليه ، وضمن لهم فى سبيل ذلك تمكينًا سريعًا ، وزحفًا منصوريًا ، وعونًا من جند الله يفوق كل قوة وكل جبروت ، وكل سلاح ، وصادف هذا النصح الإلهى من القلوب حبًا لا يقاوم للقرآن .

وتدعيمًا لذلك فقد كان القرآن دستورًا حضاريًا للعمل على مستوى الأمة كلها ، عن طريق الحفظ والدرس والتلاوة الواعية والتدبر والاعتناء والتذكر والتطبيق السلوكى الدقيق ، والدليل على أن تحويل القرآن إلى سلوك لم يفرض على المؤمنين بعصا السلطان ، وإنما جاء عن طريق الدرس والتدبر والاعتناء بعظمة القرآن ما رواه أبو عبد الرحمن السلمى قال : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعملوا بما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا ، وأقام عبد الله بن عمر رضى الله عنهما على حفظ البقرة ثمانى سنين .

ويضيق بنا المقام إذا استقصينا أقوال الصحابة فى هذا الصدد ، ولكن الذى نريد أن نوضحه هنا هو أن سرعة الحضارة القرآنية فى الانتشار والتأصل نابعة من هذا الينبوع العريق فى الأصالة ، فلا تتعثر الحضارات إلا من جهل الشعوب بالدساتير وأهدافها ، أو من قصور تلك الدساتير فى ذاتها ، أو فى إقناع الشعوب بجداولها ، وفى كلا الحالتين تختلف الشعوب مع السلطات ، وتتمرد على القانون ، ومن هنا لا تسرع الحضارة فى سيرها نحو غايتها على فرض صلاحيتها ، فضلًا عن النفقات الهائلة التى

يتطلبها إيقاف التيار المتمرد على السلطة ، وتعويق السلطة لذلك عن المضي إلى غايتها .

أما حضارة القرآن فتختلف عن جميع الحضارات من هذه الوجهة ، فالقرآن هو الفطرة البشرية التي لا تختلف فيها أمة ولا جنس ، فهو مقنع لجميع الناس بجدواه وعظيم فائدته ، ودافع لهم بما يحتويه من وجوه الحكمة الملائمة لجميع الأجناس إلى الدرس والتدبر الذي لا يزيد الناس إلا إيماناً وإمعاناً في استكشاف الحِكم التي لا تنتهى ، ولا تضعف في قوتها على كثرتها الكاثرة ، ومن هنا كان العلم بدستور الحضارة الإسلامية إلى جانب الاقتناع به عاملاً رئيسياً من عوامل السرعة في البناء ، والقوة في الأسس التي تقوم عليها الحضارة وتوفير جهود السلطات الحاكمة حيث تتفرغ لارتداد آفاق جديدة لإقامة صرح الإسلام على أرضها .

لقد أمر رب القرآن بتدبر القرآن فقال تعالى : ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾^(١) ونعى على من لا يتدبرونه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾^(٢) ولا يمكن أن يكون التدبر إلا مقروناً بفقه المعانى والأهداف والحكمة ، ولهذا لم يؤثر خلاف بين الصحابة على معانى القرآن إلا نادراً ، ولم يتهرب المخالفون للشريعة من الحدود المشروعة لأمثالهم ، بل تقدموا إلى رسول الله ﷺ طالبين إقامة الحد عليهم ، رغم محاولات ردهم عن الاعتراف ، والمشروعة للتثبت من أهلية طالب الحد ، وجديته في طلب التطهير من الذنب ، حيث وصل هذا التطهير إلى الموت رجماً بالحجارة ، وما كان ذلك إلا لأن هؤلاء قد وصلوا إلى درجة من الوعى القرآنى والإسلامى لم يصل إليها واضعو الدساتير الأرضية فضلاً عن الشعوب المحكومة بها .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

(١) سورة (ص) ، الآية : ٢٩ .

تلك عظمة لا تساق إليها الشعوب بالعصا ، وإنما تقوم على رعايتها الشعوب بمحض الإيمان والغيرة والعلم والتطلع إلى مزيد من النجاح ، الأمر الذى استطاع به الرسول ﷺ وخلفاؤه بناء أعظم حضارة عرفها التاريخ فى ربع قرن من الزمان ، لا يكفى لإصلاح مدينة واحدة تحت لواء دستور أَرْضَى فى أى دولة من دول العالم ، وفى جميع أحقاب التاريخ .

ولعل هذا المعنى العظيم هو الذى يفسر لنا الحوافز التى شرعها الله تعالى لحفاظ القرآن ، والتالين له فى مختلف الأوقات لا سيما قرآن الفجر المشهود ، حيث يصل الإنسان فى هذا الوقت إلى درجة عليا من الصفاء الذى يهبى لمن يصاحب القرآن فيه فهما لا يمكن أن يتيسر فى وقت آخر . . حتى لقد شجع النبى ﷺ من يقرأ القرآن بلا فهم تذرعا إلى دفعه إلى درجة من الفهم فيما بعد ، وكذلك من تشق عليهم القراءة تدريبا لهم على أن يألّفوا القرآن فتسهل عليهم قراءته ، ثم فهمه وتدبره ، وكان القرآن شرطاً لصحة الصلاة ، وأفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه ، إلى آخر ما هو مسطور فى السُّنة النبوية المشرقة .

وخامسة الدلائل على عظمة القرآن : أن إجماع أهله حجة على الناس جميعاً فى مختلف العصور ، ولم يمنح الله تلك الصفة على المستوى العالمى لأمة غير أمة القرآن ، وما كانت عظمة تلك الأمة على هذه الصورة العجيبة إلا من عظمة دستورها : كتاب الله الحكيم .

والذى يتصل بالقرآن من دلائل حجية إجماع المسلمين على العالم قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ^(١) ، ولا خروج إلى النور إلا بالقرآن ، فإذا أجمعوا على باطل كانت نتيجة إجماعهم إما بقاء الناس فى الظلمات ، وإما إعادة الناس من النور إلى الظلمات ، وهو ما يشهد التاريخ بخلافه ، إذ أمة القرآن بقيادة رسولهم ﷺ ومن بعده من

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٧ .

الأئمة جاهدوا الناس لإنقاذهم من شؤم الظلام إلى وضوح النور وما زال إجماعهم هكذا في مجال الرأي والفكر والاستنباط .

وحينما أعطى الله تعالى أمة القرآن سلطان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان ذلك سلطاناً من الله تعالى لهم أن يصيبوا الحق فيما كان معروفاً أو منكراً عند الله حينما يجمعون على أحدهما أو عليهما معاً أو يختلفون فلا يعدوهم الحق ، وكذلك يقول الله تعالى عن أمة القرآن : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ^(١) فالوسط : من يُرتضى قوله ، والشاهد : من يكون قوله حجة في مجلس القضاء للفصل في الخصومات ، وهو إيدان بأن الحق لا يعدوهم مجتمعين أو مختلفين .

وهذه الصفة وإن كانت لأمة القرآن فإنما اكتسبوها من القرآن ، فلولاً أن القرآن مهيمن على جميع الكتب ، ورسوله شاهد على شهداء الأمم كلها ، وفيصل بين الحق الذي هو من عند الله وبين باطل تلك الأمم ، لما كان لأهله تلك الصفة ، ولا تلك العظمة المستمدة من القرآن على مستوى العالم كله في الدنيا ، والتي تتعدى الدنيا إلى مجلس القضاء في الآخرة حيث يشهد رسول القرآن ﷺ على شهداء الأمم جميعاً .

وأخيراً فإن إعجاز القرآن هو العظمة الذاتية التي حار العلماء والمفكرون في الكشف عنها ، وما زالوا يكتشفون منها كل يوم جديداً ، ولا يزالون كذلك مادام القرآن متلوّاً أو محفوظاً في الصدور .

وليس القول بالإعجاز في القرآن موجهاً نحو العجز عن فهمه بالقدر الذي تقوم به الشريعة كما يحلو لبعض هواة الجدل حول الدين أن يتلمسوا معنى بعيداً عن نطاق الفكر الإسلامي كهذا المعنى الذي لم يقل به أحد ، فيقيموا حوله سوقاً لئيماً من الجدل ، ويطلقوا القول بعدم

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ .

إعجازه من هذه الوجهة التى لم تخطر على بال مسلم من العامة فضلاً عن الخاصة ، فيظن بعض البسطاء فى نهاية تلك السوق نفى الإعجاز عن القرآن بالكلية ، نتيجة لذلك اللؤم فى الفكر ، أو لهذه الهواية البهلوانية مما يشبه ألعاب (السيرك) من الكلام يقتل به صاحبه نفسه ، ويقتل غيره ، وحسبه أن تلوك الألسنة اسمه على أى صفة وأى صورة من الصور والصفات حتى ولو كانت باللعنات المترادفات .

عظمة القرآن فى أنه آية من آيات الله واضحة المعنى والهدف بالقدر الذى يحتمله البشر ، ويفهم منه القانون الإلهى ، سهل الأسلوب ، حتى ليخيل لمن مارس طريقته أنه يستطيع مثله ، فإذا حاول عجز عجزاً كاملاً ، واعتراه النقص والتخبط مهما أجهد عقله ونفسه ، وراضها على تلك الحكمة الأسلوبية الناصعة الوضوح فى القرآن .

ولهذا كان وصف الوليد بن المغيرة للقرآن واضحاً فى أن نسق القرآن مغاير تماماً لنسق الكلام البشرى ، فما هو إلا ضرب من القول فوق قدرات البشر سماه : سحرًا يؤثر .

قال الوليد لأبى جهل : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .

فلما قال له أبو جهل : إن هذا القول لا يرضى به قومه ، فكر طويلاً فلم يجد إلا أن ينسبه إلى قوة من القوى غير المنظورة ، وغير المقدورة ، فقال : (سحر يؤثر) وبطلان نسبة القرآن إلى السحر معلوم ، ولكن نسبة الوليد إياه إلى تلك القوة غير المنظورة ييطن العجز عن معارضته ، وشلل القدرة العربية - على الأقل فى ذلك العصر وفى وسط الكفار الذين يتلمسون وجهًا للمعارضة - عن الإتيان بمثله ، فهو وإن لم

يعزل القرآن عن القدرة البشرية عزلاً كاملاً ، بل أبقي من يستطيع السحر قادراً على مثله ، فقد زلزل بهذا الرأي عموم القدرة الإنسانية على مثله ، وشهادة العدو بذلك شهادة بالإعجاز إذا راعينا جانب الكفر واللدن في الخصومة في وزن هذا القول بميزان علمي دقيق .

ومن أحسن ما قيل في تعليل إعجاز القرآن ما قاله ابن عطية في مقدمة تفسيره (٢٧٨ / ١) : « إن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن ، علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك ، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا يبطل قول من قال : إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك ، والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط ، ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولاً ، ثم ينظر فيها فيغير فيها ، وهلم جرا ، وكتاب الله لو نزع منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد . . وقامت الحجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة » .

لقد كان العرب أشد الناس أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، فكان من المحال أن يطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة من التحدى ولا يعارضونه لو استطاعوا إلى ذلك السبيل .

ونقل السيوطي عن حازم في منهاج البلغاء ما يتم به كلام ابن عطية إذ قال : وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاءها في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحاءها في العالی منه إلا في الشيء اليسير المعدود ، ثم

تعرض الفترات الإنسانية ، فينقطع طيب الكلام ورويقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه .

وأى عظمة تعدل عظمة العجز عن معارضة نظم القرآن وأسلوبه على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، حتى أصبح الكلام في هذا الموضوع في عصرنا ضربًا من صرف الناس عن عظمة التشريعات القرآنية ، ولعبة لئمة يمارسها الأعداء من جبابرة اللؤم والخذاع .

وقد فطن المرحوم الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي في الكتاب الأول من كتابه (الإسلام في عصر العلم) إلى دلالة نص من القرآن على عظمة القرآن وإعجازه الذى لن يزال ماضيًا في الأمم من وجهة نظر العلم . ذلك النص هو قول الله تعالى : ﴿ فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) وقد لفت رحمه الله النظر إلى كلمات (الفطرة) و (الناس) و (لا تبديل لخلق الله) ، والفطرة هى السنن الإلهية الثابتة التى تقوم عليها الخلقة فى أصلها ، والناس لفظ شامل لمن عاش ومن سيعيش على ظهر الأرض من كل الشعوب والأمم ، وعدم التبديل يدحض زيف العلماء التجريبيين الذين مجلو لهم مهاجمة الإسلام وغيره من الأديان بالتعارض مع العلم ، وإنما التعارض وقع فى تجاربهم لا فى السنن الثابتة التى لما يصلوا إليها بعد ، فظنوا القصور فى أصل القوانين ، بينما القصور ما زال فى عقولهم وتجاربهم .

ويقول رحمه الله : « ومن أعجب عجائب تلك الآية الكريمة وصف الإسلام - دين القرآن - بأنه نفس الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهذا شىء فوق العقل البشرى أن يتصوره فضلًا عن أن يسبق إليه فى القديم

(١) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

والحديث ، والإنسانية كلها إلى الآن لا تعقل حتى إمكان تحقيقه ، فلا فلاسفتها ولا مشرعوها يحدثون أنفسهم بالوصول يوماً إلى نظام ينطبق على الفطرة من جميع وجوهها ، والمسلمون في شغل بما ينبذ إليهم الغرب من الآراء والمذاهب ، غافلين عن الكنز الذى بين أيديهم ، والنور الذى فوق أبصارهم ، والنعمة الكبرى التى مَنَّ الله عليهم بها فى الإسلام .

وحسب القرآن من العظمة أنه المعجزة الباقية على مدى الدهر ، حيث اندثرت معجزات الرسل السابقين جميعاً بعد أداء وظيفتها فى إقامة الدليل على صدق أولئك الرسل . وحسبه كذلك من العظمة أنه يتصل بالحياة ما بقيت الحياة ، فبه حياة القلوب بالإيمان ، وبه حياة الإيمان بالجهاد ، وبه قيام الجهاد بمنهج الأئمة فى تربية إنسان الحضارة الأئمة ، وبهذا الإنسان الموصول بالقرآن تنبض الحياة بالعدل ، وبه يدبر الظلم والإحاد ، وما كانت معجزات الرسل السابقين كذلك ، فقد كانت كلها إما متصلة بحياة جسد ، أو متحدية وهم السحر ، أو حجة على قوم بعينهم مردوا على الكفر فهلكوا بعدها بوسيلة تدمير غيبية ، وما كذلك معجزة القرآن التى بقيت لتتحقق مزيداً من الاتساع فى قاعدة الإيمان على مدى الزمان .

وحدة الموضوع فى القرآن :

لا أريد أن أطيل القول فى موضوع تلاحم آيات القرآن من الوجهة التى طرقها الإمام السيوطى ، وطرقها فى عصره الإمام برهان الدين البقاعى فى كتابه (نظم الدرر فى تناسب الآى والسور) وهو موسوعة جيدة جداً فى ستة مجلدات مخطوطة ، كبار ، وطرقها حديثاً المرحوم الأستاذ سيد قطب فى كتابه (فى ظلال القرآن) ، وإنما أريد أن أحدد القول فى وحدة موضوع القرآن من حيث هو قوانين فطرية تتدرج إلى قانون واحد فطرى من وجهة الاجتماع البشرى ، لا يمكن بأى حال أن يتبدل ولا يتغير ، بل إنه يحكم التصرفات البشرية فى كل مكان ،

ويخضعها لستته وتجاربه المنظورة وغير المنظورة في ثنايا القرآن والتي تتنافر مع أهواء الناس ، وتتفق تمامًا مع الوعي العقلي الموصول بوعي البصيرة والروح ، أى الوعي العقلي المنفصل عن الهوى .

أقول : إن القانون الرئيسى الذى تدور حوله مواضيع القرآن الفرعية هو : أن الإنسان عبد فقير مأمور محبوس في مملكة عدوه ، والله معبود غنى مانح للحرية من سجن الدنيا إلى حقيقة الحرية في جواره الأعلى ، ولا تجد تشريعًا في القرآن وفي أى باب من أبواب الفقه الإسلامى إلا وهو متصل بهذا القانون الرئيسى ، بحيث تتضافر التشريعات كلها لتحقيق هذا الأصل وتحويله إلى عقيدة شاملة هي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

ولقد جاء القرآن الكريم بهذا الأصل الفطرى مؤيدًا بنصوصه فروعه الأربعة : فنحن نراه يؤكد عبودية الإنسان وغيره من الكائنات في نصوص أشملها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ^(١) ويؤكد فقر العباد بقوله : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُ الْفَقْرَاءُ ﴾ ^(٢) ، وأكد أن الإنسان خاضع للأمر وليس بأمر ولا حاكم بقوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ^(٣) ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(٤) إلى آخر ما ورد في القرآن من الأوامر الموجهة إلى الإنسان على وجه الإلزام ، وأكد حبس الإنسان في مملكة عدوه بقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ ^(٥) فبين أن الدنيا للذين لا نصيب لهم في الآخرة ، وهم أعداؤنا ، وأيد هذا المعنى الذى يكون شطرًا كبيرًا في العقيدة بقوله :

(١) سورة مريم ، الآية : ٩٣ .

(٢) سورة محمد ، الآية : ٣٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٢٨ .

(٤) سورة الإنسان ، الآية : ٣٠ .

(٥) سورة الشورى ، الآية : ٢٠ .

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَنْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿ ٣٤ ﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ ١ ﴾ .

وآيات الله في النفس إذا تأملها الإنسان مجرداً عن الكتب والرسالات السماوية تبينت له تلك القوانين الفطرية ، وتأكد له أن القرآن لم ينزل إلا بهذه الفطرة التي هي الخلقة الإلهية بقوانينها العلمية الثابتة التي يواجهها إنسان العصر فاغراً فاه من الدهشة متصوراً أنه على ضد في هذه الحياة ، لكثرة ما اعتراه من النسيان ، وصلابة ما غلف قلبه من رين الغفلة ، حتى ظن الباطل حقاً والحق باطلاً إلا من عصم الله ، وقليل ما هم .

فالإجماع قد انعقد في جميع الأفهام على أن العبد : اسم خاص للمملوك من جنس العقلاء ، والمملوك : اسم لعاقل قهره غيره فاستولى عليه استيلاء السيد على العبد ، سواء أكان القاهر له إنساناً مثله ، أو شهوة من شهواته ، أم طاغوتاً من الطواغيت ، أم شيطاناً من الشياطين ، أم هو قوة خفية لا يستطيع أن يميزها ، ولا يتبين لها وجهها ولا جهة . . قاهرة عليا فوق كل القوى .

وتأمل الإنسان في نفسه دون تقيد بكتاب ولا رسول يؤكد له في أصل الفطرة أنه عاقل مقهور بالتكوين والإنشاء من العدم ، وإذا كان مقهوراً بأصل الفطرة على هذه الصورة فقد انعدمت في فطرته المشيئة ، لأن المشيئة عبارة عن نهاية الملكية ، والإنسان قد فطر على ضدها من المملوكية التي أوضحناها ، والدليل على فقدان الإنسان للمشيئة من واقع سلوكه : أنه يشاء الكثير من الخير ، ولا يصيب إلا المقدور له ، والمقسوم منذ الأزل السحيق .

(١) سورة الزخرف ، الآيات : ٣٣ - ٣٥ .

وإذا تحققت العبودية فى فطرة الإنسان ، وتحقق عدم أهليته للملكية كان فقيراً بفطرته ، والفقر يقتضى الحجر وعدم التصرف إلا بإذن وسلطان من المالك الحق .

وإذا كان الإنسان فى أصل الفطرة على ما وصفنا من العبودية والفقر يعيش على تلك البسيطة الهائلة من الأرض ، ولا يستطيع النفوذ من أقطارها ، كان مقامه عليها على تلك الصورة بحكم الحبس للمحنة والابتلاء ، ولا يتصورها مملكة إلا من عجز عن إدراك الفطرة ، واتخذ إلهه هواه ، وادعى الحرية ، وعلا فى الأرض علو الملوك على مدرجة الضلال .

والبلاء الذى يمتحن به الإنسان هو اختلاف بنى جنسه حول تلك الحقائق الفطرية اختلافًا هائلاً ، ومن وجهات مختلفة ، فاختلف الناس حول الإذعان لتلك الحقائق ، أو ادعاء ضدها ، من الحرية ، والغنى ، والحاكمية ، والسيادة ، ثم اختلفوا حول الحق حينما اتفق بعضهم على أن عبودية الإنسان جبلة فطرية فى أصل خلقته ، ثم اختلفوا طرائق وشواكل حول الغيبات كلها ، لا سيما البعث الذى شكل الخلاف حوله مذهباً دهرياً على حكمة الفطرة من أولها إلى آخرها ، فكان بعث الرسل وإنزال الكتب ضرورة لا محيص عنها ، لإقامة الحجة ، وهداية الناس ، وحمايتهم من عواقب الخلاف حول الفطرة ، وإن كان الخلاف فى أصله هو الآخر فطرة وسنة من سنن الله فى الخلق ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿ (١) فإن الكتب والرسالات كانت لقمع الجنوح النفسى تحت تأثير الخلاف إلى فوضى مدمرة لا تبقى ولا تذر .

كان من أمهات المسائل التى عنى القرآن بفصل القول فيها : مسألة العبودية لله ، ومسألة البعث للجزاء والكشف عن الحقيقة العظمى التى

(١) سورة هود ، الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

اختلف حولها الإنسان في عالم الجسد المادى بما له من مقتضيات الخلاف واللد في الخصومة ، وتلك الحقيقة العظمى هي الوجود الإلهى ، وإذعان كل الكائنات لسلطانه طوعاً أو كرهاً ، ولذلك ارتبط إثبات البعث بإثبات الوجود الإلهى ، وإثبات الدلائل على شمول علمه وقدرته ، وارتبط كل ذلك بأصل الفطرة على الوجه الذى بيناه في هذه العجالة ، وكان من تلك المسائل شطر كبير من القرآن ، تبعاً لجهل أكثر الناس بها ، ونسيان فطرتهم وهم يحاولون علمها وتشددهم في إنكارها أو الغفلة عنها ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٨) يُبَيِّنُ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

فلما كان الخلاف مركزاً في الفطرة ، لم يكن هناك سبيل إلى إدراك حقيقة البعث المؤكد للحقيقة الإلهية العظمى إلا حين يرتفع الخلاف بنقل الحياة إلى صورة أخرى ذات فطرة لا خلاف فيها فيتحقق وجود حالة من الحياة مغايرة لتلك الحياة التى يحياها الإنسان في الدنيا ينكشف فيها الغطاء ، ويحد البصر ، فيرى ما لم يكن يراه من قبل ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ ﴾ (٢) ، فلا خلاف ولا تطاحن حول الحقائق .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نستقصى منهج القرآن في إثبات هذا الشطر من فطرة الإنسان ، ولكننا نشير إلى قسم آخر من أقسام تلك الفطرة ، هو الحرية الإنسانية التى ترتبط هى الأخرى بموضوع البعث ارتباطاً وثيقاً بحيث تشكل معه ومع العبودية والفقر إلى الله موضوعاً واحداً ، يتصل بموضوعات أخرى فرعية هى مقومات أو شواهد على صدق تلك الفطرة الإلهية الحكيمة ، وتستغرق شطراً كبيراً من القرآن .

(١) سورة النحل ، الآيات : ٣٨ - ٤٠ .

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٤٧ .

لا حرية مطلقة للإنسان في هذه الدنيا ، هكذا تنطق شواهد الفطرة التي جبل الله عليها الإنسان ، وقامت عليها الشواهد في شريعته مما يمارسه نفس ذلك الإنسان الذي يدعى لنفسه الحرية والسيادة والغنى وهمًا وسرابًا لا حقيقة له في الذات ولا في الصفات ، كما قرر القرآن .

والنموذج الواضح الذي يمكن الوصول من خلاله إلى هذه النتيجة الفطرية هو : الغنى الذي ساد الناس بزعمه من جبايرة المال وملوك الأرض ، حتى ملك العبيد ، وخضعت له الرقاب ، وجمع الجنود واستولى على الأرض ، فما له من منازع في أمر ، ولا معقب في رأى ، مطاع على عزة وامتناع في أنظار العامة من غير المستبصرين الباحثين عن الحقيقة في أصل الفطرة .

ويقول الإمام أبو زيد الدبوسى ردًا على تلك الدعوى العريضة : إن هذا المدعى للحرية والملك ما استقر سلطانه ، وعلا مكانه بفطرته ، وإنما بجنوده ، وبأس عبيده ، لا يستغنى عنهم ساعة لاستدامة ما هو فيه ، فهو يطلبهم بهواهم ، وينيلهم مناهم ، صدقًا برغبته فيهم ، والناس يطيعونه رياء لخوفهم منه ، أو طمعًا فيما في يده ، وهو يطيع هوى من دونه ، وهم يطيعون من فوقهم ، وطاعته لهوى الناس ضرورية ، وطاعة الناس له ليست ضرورية ، لبقاء منزلتهم في أنهم عبيد فقراء مأمورون بلا وال ، غير أن طاعة الناس له بأجسامهم ، وطاعته لأهوائهم بقلبه فاستترت وما ظهرت إلا لأهل البصائر .

ويمضى الإمام الدبوسى في بيان العجيب إلى أن يقول مخاطبًا هذا النوع ممن يدعون الحرية والغنى : فعميت وجلست على سرير العبودية للعبيد ، وكان ائتمارك للجنود ، وأحاطت بقلبك المكاره والآفات ، وظننت أنك ملك ، هيهات . ما أنت إلا مأمور حشمك ، والرعية مأمور ملكهم ، غير أن النفس لبست عليك مقام الائتمار بمسارعتك إلى الفعل قبل الأمر .

ويمضى الإمام الدبوسى فى بيانه العجيب إلى أن يقول مخاطبًا هذا النوع من الناس فيقول : إن تصرفك فى أموالك كلها متردد بين جائز مأمور به ، وفاسد منهى عنه ، وما هكذا علامة الملك والقهر ، لكنه علامة الإذن على الفقر ، غير أن الله تعالى خلقك للابتلاء مدة بقاءك ، وقرن بقاءك بغذائك ، وخلق مما فى الأرض منفعة لك إلى وقت انقضائك ، فقسم لكل عبد نصيبًا مفرزًا ، كيلا يتغالبوا فيتفانوا وجعل عليهم من أصلحهم قيمًا وهو السلطان ، فهم يتمتعون بالأنصبة من يد القيم من أحوال طفولتهم وصغرهم ، فإذا عقلوا سلمت إليهم الأنصبة لحق الإذن فى التجارة دون إثبات الملك ، فإذا بلغوا وكملت الحالة ، ضربت عليهم الضرائب للمولى ، وخوطبوا بأدائها مدة الحياة ليعتقوا إذا أدوا ، وسلمت إليهم للحال الأنصبة لحق الإذن تسليم يد ، ليتصور الأداء بحكم تباين الأيدي ، وإن لم يكن فى الحقيقة ملكًا للمؤدى ، حتى لم يملكوا من أموالهم إلا بمقدار ما فك الله الحجر عنهم بالعقد .

وهنا يتصل هذا الموضوع بموضوع الرق فى القرآن والشريعة بعد ما انحسم القول فى مشكلة الملك والحرية ، والنصوص القرآنية المتعارضة فى الظاهر ، من حيث يثبت الملك فى بعض النصوص للإنسان ، ويرجع الملك كله لله ويتنفى عن الإنسان فى النصوص الأخرى ، ثم يتصل الموضوع الواحد للقرآن بالتشريعات المالية وفروعها تحقيقًا للملك الإلهى والقدر المتاح للعباد بالتصرف ، ثم بموضوع البقاء الإنسانى بالتكاثر بعدما بقى المال ، وما يتبع ذلك من أبواب التشريع ، ثم بموضوع المجتمعات الإنسانية وحضاراتها التى لا تزدهر إلا تحت الأمر الإلهى ، ولا تندثر إلا تحت التمرد على تلك الأوامر ، وبموضوع القصص القرآنى وتوجيه النظر نحوه فى حركة التاريخ تحقيقًا لهذا الأصل الفطرى الذى تدرج حتى وصل إلى قاعدة أوسع يحتمل فيها النسيان ، ولهذا شرعت العبادات والذكر لدوام التذكر .

ولا يخلو موضوع من موضوعات التشريع من دليل واضح على تلك الفطرة الثابتة ، وخير ما يمكن أن ندرك من خلاله موضوع الحرية الإنسانية هو موضوع الرق وما يتصل به من تشريعات . إذ أن الرق والعبودية لما كانا من فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها ، وأن الملكية للإنسان في الدنيا ما هي إلا ابتلاء ينال الإنسان من خلالها ومن خلال الأوامر المتصلة بها حقيقة الحرية فقد شرع الله من التشريعات السلوكية في هذا الصدد ما تتضح به تلك الفطرة لكل ذى عينين .

يملك الرجل أخاه ملك يمين بسبب مشروع هو أن يكون أو أحد أصوله ممن تمردوا على دعوة العبودية لله بالسلاح فأسروا في الحرب الدينية ، ولكن رحمة الله اقتضت أن يشرع له وجه من وجوه الحرية هو (المكاتبه) ، والكتابة باب واسع في الفقه الإسلامى ، يشتري العبد حرته من سيده بمال معلوم ، ولما كان العبد لا يملك ، فقد ندب السيد إلى أن يأذن له في العمل بجزء من المال إحساناً ، ويتصرف العبد بقدر ما انفك عنه الحجر ، كأنه مالك وليس إلا عبداً ، فإذا أدى عتق ، وإذا عجز بقى عبداً ومن هذه القضية التي يمارسها الإنسان بأمر الله يمكن الفصل في قضية الحرية الكبرى على المستوى الغيبي ، بعد دراستها على المستوى المشهود .

فالحرية الممنوحة من الله تعالى لعباده الذين أدوا ما وجب عليهم في دار الابتلاء تشمل الذات في الدنيا والصفات في الآخرة جميعاً ، ويشهد لذلك قوله تعالى عن هؤلاء الأحرار في دار النعيم : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(١) فما يريده هؤلاء الأحرار يتحقق بمجرد المشيئة ، وتحقق المراد بمجرد المشيئة وإن كان حقاً لله فقد أكرم الله به عبده المطيع بتكوين ما يشاءه .

فإذا كانت الحرية في الدنيا هي خلاص حق الحر في نفسه وماله ، فما

(١) سورة (ق) الآية : ٣٥ .

لأحد على الفائز بالجنة حق في شيء من أحواله ، فيكون عبدًا في ذاته من حيث التكوين ، عتيقًا في أفعاله من حيث الإنعام والتكريم . وهكذا يكون مثل ما في التشريع ، وصلًا بين حيتين يدرك المستبصر من خلالهما كل أسرار الفطرة التي لم يخرج عنها القرآن في أى موضوع فرعى من مواضيعها ، ومن هذه النافذة يمكن أن تتصل موضوعات القرآن في وحدة متماسكة لا خلل فيها .

وجانب آخر متلاحم مع هذا الأصل الفطرى الذى دار حديثنا حوله ، ودارت حوله الكثير من آيات القرآن الكريم هو : العدل باعتباره الفطرة التى بنى الله تعالى عليه هذا الكون المنظور وغير المنظور ، وردنا من خلال تلك الفطرة إلى موضوع المعبود الحق الذى تقوم على أساسه الحضارة القرآنية ، والدعوة العالمية إلى الإسلام ونجاحها اليقين من حيث تعثرت خطى الدعاة فى عصرنا الحاضر حينما أدخلوا بتلك الفطرة .

وأصل هذا الجانب الرئيسى : أن الله - عزت قدرته - علق بقاء الأنفس بالمال ، وعلق بقاء الجنس بازدواج الذكر والأنثى ، فأنت ترى أن أسباب البقاء والتكاثر هى شهوات الطبيعة التى فطر الله الناس عليها ، لتكون تلك الشهوات سائقة إلى أسباب البقاء ، ثم أعلن سبحانه أنه ما خلقهم للاستغراق فى تلك الشهوات ، بل ليوحدوه ويعبدوه بأمره على خلاف الطبع ، ولهذا نرى القرآن يدعو إلى العمران ويشجع النكاح ، وينعى على من يحرم الطيبات من الرزق ، وفى الوقت نفسه يمقت الترف والإغراق ، ويدعو إلى إثارة الآخرة على الأولى ، ويعلق ملك الآخرة بالتوحيد والهدى ، فى مقابلة تعليق الحاضرة على الشهوات والهوى ، وهنا كان الابتلاء الذى لا ينجو الإنسان منه إلا بالعدل وإقامة الموازين الدقيقة فى شئون المال والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء .

عدل الإنسان مع نفسه ، فلا ينساق إلى الترف فى الجسد والعقل ، وعدل الإنسان فى علاقته بربه ، فلا تطغى عليها الدنيا بشهواتها ،

ولا تطفئ العبادة على العمران ، وعدل الإنسان في علاقته مع غيره من بنى جنسه ، إبقاء على الإخوة الضرورية لنجاح الأمة في شريعة الجهاد في سبيل الله ، وقد أفاض القرآن في هذه المواضع وربطها بما أشرنا إليه من مواضع في شطر كبير جدًا من آياته .

وغاية العدل : أن يصل الإنسان إلى أن كل سلطان عليه غير سلطان الله فهو شرك وضلال ، وكل عبودية لسواه ذل ، وعلى الإنسان أن يوفق بين ارتباط مصالحه الدنيوية بغيره من الناس وبين العبودية لله ، فلا يمنح الإنسان أكثر من حقه في أنه عبد مسخر للعمل وتبادل المنافع مع غيره ، ولا يتحدث عن الخالق الأعلى حديثه عن العبيد ، ولا يخلط بين الفانى ومناخ الحياة .

وعلى هذا النهج تخلص عقيدة المؤمن من الشرك الخفى والجلى ، وعلى العكس إذا اختلت موازين العدل بين الإنسان ونفسه ، فمال إلى الشهوات ، فإنه حينئذ يصبح إنسانًا مختلفًا في توازنه بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، ويضعف أو ينعدم شعوره بسلطان الله وقهره مادام مقهورًا للشهوة ، مدفوعًا بسلطان المال ، ومن هذا تكون الفوضى ، ويتحطم بناء المجتمع باختلال نظام الأسرة .

فالإنسان لا يصبح سوىًا صالحًا لممارسة شعائر الإيمان الحق كما يريده الله تعالى إلا إذا عدل بين مطالب جسده ، ومطالب عقله ، ومطالب روحه ، فمطالب الجسد : إبقاؤه حيًا متكاثرًا دون سرف ولا تقتير ، ومطالب العقل : النظر في العلوم والمعارف التى تؤدي إلى رقى الإنسان وتساميه عن وحل الانحراف ، ومطالب الروح : وصلها عن طريق العبودية والعبادة بمصدر الوجود الحق ، وإسناد التوفيق إليه ، والبراءة من الحول والقوة ، والفرار إليه في كل المهمات .

وظلم الإنسان لنفسه في جانب من الجوانب الثلاثة ينتهى به إلى مرتبة

الأنعام حينما يعبد هواه ، وإلى الشرك حينما يصبح الظلم عظيمًا بالغفلة عن الله ، وعن مراقبته ، ومراقبة إنعامه ، ونسبة شيء من ذلك إلى العبيد باللسان أو بالوجدان أو بالعمل .

ولقد بث الله تعالى تعاليمه للمؤمنين وحدة الموضوع القرآني عن طريق العدل في المطالب البشرية الفطرية في مواضع كثيرة من أظهرها أوائل سورة الروم .

فقد افتتحها الله تعالى بتذكير المؤمنين بأن النصر من عند الله ولكنهم لا يعلمون ؛ لأنهم يغفلون عن مطالب الروح فلا يعلمون إلا ظاهراً من الدنيا ، ثم أرشد إلى منهاج الوفاء بمطالب العقل والروح ، ووجه الأنظار إلى التفكير في أنفسهم وفي خلق السموات والأرض بالحق لعاقبة الجزاء ، وإلى دراسة تواريف الأقدمين من جبابرة الكفر ، وكيف انتهى بهم الحال إلى ذل مقيم ، ثم وجه الأنظار إلى استمرار خط الحياة بعد الموت ، وبسط القول في الثواب والعقاب ، وأمدهم بمادة التفكير الموصلة إلى حقيقة الإيمان والتوحيد ، وكيف أن الملك الحق يفعل ما يريد .

ثم انتهى القول الكريم إلى مخاطبة الرسول ﷺ وتوجيهه نحو عناصر الفطرة في هذا البيان الحكيم ، فقال تعالى قولاً فصلاً فيه كل العلم لأهل البصائر والذكرى .

﴿ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠)

﴿ مِّنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَضَمُوا صَلَاتَهُمْ وَآمَنُوا بِمَا ضَمَمُوا إِلَىٰ مَا هُتِفُوا بِهِ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتَ الَّذِينَ هَضَمُوا صَلَاتَهُمْ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣١)

﴿ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْراً كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (١)

وهذا هو الموضوع الواحد الذي شرحه القرآن ، وعرضه على مختلف

(١) سورة الروم ، الآيات : ٣٠ - ٣٢ .

المناهج حتى يستحق وصف الله تعالى له بأنه كتاب البشرية كلها ، جاء به رسول الله ﷺ إلى الناس كافة في كل العصور والأجيال .

فسبحان الله الذى أقام بالعدل والقسط والميزان هذا الكون الهائل ، وأنطق بالعدل حركات الكواكب ، ودرجات الحرارة والبرودة ، وموج المحيط ، وهدير السحاب ، وسوق الماء ، واضطراب الأرض بالنبات ، وكل سر لله فى خلقه منظور ومحسوس ومغيب عن مدارك الإنسان ، وربط بين العدل والفطرة ، وربط بين الفطرة والقرآن ، وأنزله كتاباً واحداً الموضوع . . كتاب الهدى والتوحيد والفطرة .

عبد القادر محمد عطى

ترجمة الامام السيوطي*

(٨٤٩ - ٩١١ هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م)

نادرة زمانه ، وفريد عصره وأوانه ، إمام الشيوخ ، وعمدة أهل التحقيق والرسوخ ، قطب الشارحين ، وتاج المدققين ، حامل لواء الفصاحة وحُلة البلاغة .

جلال الدين ، أبو الفضل ، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى ، الحافظ المحدث ، اللغوى الأصولى الفقيه المفسر ، ولد سنة ٨٤٩ هـ ، شَبَّ يَتِيمًا فحفظ القرآن ، وطلب العلم ، فألح في طلبه ، وأغرم منذ نعومة أظافره بالجلوس للشيوخ والعلماء ، ولما بلغ سن الأربعين اعتزل الناس وخلا بنفسه في روضة المقياس بالقاهرة على نيل مصر ، وانهمك في التأليف والتصنيف . . له كتب كثيرة منها :

- | | |
|---------------------|-------------------------------|
| ١ - جمع الجوامع . | ٢ - الجامع الصغير . |
| ٣ - تاريخ الخلفاء . | ٤ - تنوير الحوالك . |
| ٥ - الحاوى . | ٦ - حسن المحاضرة . |
| ٧ - تدريب الراوى . | ٨ - الإتيقان فى علوم القرآن . |
| ٩ - طبقات الحفاظ . | ١٠ - طبقات المفسرين . |

توفى بروضة المقياس ، ودفن بالقاهرة فى حوش قوصون خارج باب القرافة المعروف الآن ببوابة السيدة عائشة سنة ٩١١ هـ .

* انظر : الضوء اللامع (٦٥/٤) ، والأعلام (٣٠١/٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

[قال الشيخ الإمام العالم ، العامل ، الحجة ، البحر الفهامة ، رحلة الطالبين ، عمدة المفتين ، لسان المتكلمين ، محيى السنة فى العالمين ، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن الشيخ العلامة كمال الدين ، السيوطى ، الشافعى ، فسح الله تعالى فى مدته ، ونفعنا والمسلمين ببركته ، وجعلنا وإيَّاه من حزب محمد وعترته] : (١)

الحمد لله الذى أنزل كتابه المجيد على أحسن أسلوب ، وبهر بحسن أساليبه وبلاغة تركيبه القلوب ، نزله آيات بينات ، وفصله سوراً وآيات ، ورتبه بحكمته البالغة أحسن ترتيب ، ونظمه أعظم نظام بأفصح لفظ وأبلغ تركيب ، صلى الله على من أنزل إليه لينذر به وذكرى ، ونزله على قلبه الشريف ، فنفى عنه الحرج وشرح له صدرًا وعلى آله وصحبه مهاجرة ونصرًا . . . وبعد :

فإن الله سبحانه منّ علىّ بالنظر فى مواقع نجومه ، وفتح لى أبواب التطرُّق (٢) إلى استخراج ما أودع فيه من علومه ، فلا أزال أسرِّح النظر فى بساطينه من نوع إلى نوع ، وأستسنع (٣) الخاطر فى ميادينه فيبلغ

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) فى المطبوعة : « النظر فيه » ، والمثبت من (ظ) ، وتطرَّقَ إليه : ابتغى إليه طريقًا وتوسَّلَ .

(٣) أستسنع خاطرى : أستحصه ، أى : أتأمل به متفحصًا .

الغرض ويرجع وهو يقول : لا رَوْع ، فتقت^(١) عن أنواع علومه ولقبتها ، وأودعت ما أوعيت منها في دواوين وأعيثها ، ونقبت^(٢) عن معادن معانيه وأبرزتها ، وأوقدت عليها نار القريحة وميزتها ، وألفت في ذلك جامعًا ومفردًا ، ومطنبًا ومقصّدًا^(٣) ، ومن خلق لشيء فإلى تيسره ، ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره .

وإن مما ألفت في تعلقات القرآن كتاب « أسرار التنزيل »^(٤) الباحث عن أساليبه ، المبرز أعاجيبه ، المُبين لفصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه ، الكاشف عن وجه إعجازه ، الداخِل إلى حقيقته من مجازه ، المُطلع على أفانيه ، المبدع في تقرير حججه وبراهينه ، فإنه اشتمل على بضعة عشر نوعًا :
الأول : بيان مناسبات ترتيب سوره ، وحكمة وضع كل سورة منها .
الثاني : بيان أن كل سورة شارحة لما أُجْمِل في السورة التي قبلها .
الثالث : وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التي قبلها .
الرابع : مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقّت له ، وذلك براعة الاستهلال .

الخامس : مناسبة أوائل السور لأواخرها .
السادس : مناسبات ترتيب آياته ، واعتلاق بعضها ببعض ، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها .
السابع : بيان أساليبه في البلاغة ، وتنوع خطاباته وسياقاته .
الثامن : بيان ما اشتمل عليه من المحسنات البديعية على كثرتها ،

(١) فتقت عن كذا : شقققت عنه وكشفت عن سره . م : وفي (ظ) : « فنقبت » .
(٢) في (ظ) : « وبقرت » وكلاهما سائغ . والبقار : الحفار .
(٣) مطنبًا من الإطناب ، وهو : التطويل ، ومقصّدًا من القصد ، وهو الاختصار .
(٤) أو قطف الأزهار في كشف الأسرار ، وذكره المؤلف في حسن المحاضرة (١/٣٣٩) ، وتوجد منه نسخة خطية في برلين (٧٢٣/٦) دليل مخطوطات السيوطي (٣٠) .

كالاستعارة ، والكناية ، والتعريض ، والالتفات ، والتورية ، والاستخدام واللف والنشر ، والطباق ، والمقابلة ، وغير ذلك ، والمجاز بأنواعه ، وأنواع الإيجاز والإطناب .

التاسع : بيان فواصل الآى ، ومناسبتها للآى التى ختمت بها .

العاشر : مناسبة أسماء السور لها .

[الحادى عشر : الألفاظ التى ظاهرها الترادف وبينهما فرق دقيق] ^(١) .

الثانى عشر : بيان وجه اختيار مرادفاته وَلِمَ عُبِّرَ به ^(٢) دون سائر المرادفات ^(٣) .

الثالث عشر : بيان القراءات المختلفة ، مشهورها ، وشاذها ، وما تضمنته من المعانى والعلوم ، فإن ذلك من جملة وجوه إعجازه .

الرابع عشر : بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات فى القصص وغيرها بالزيادة والنقص ، والتقديم والتأخير ، وإبدال لفظة مكان أخرى ، ونحو ذلك .

وقد أردت أن أفرد جزءاً لطيفاً فى نوع خاص من هذه الأنواع ، هو : مناسبات ترتيب السور ، ليكون عجالة لمريده ، وبغية لمستفيده ، وأكثره من نتاج فكرى ، وولاد نظرى ، لقلّة من تكلم فى ذلك ، أو خاض فى هذه المسالك ، وما كان فيه لغيرى صرحت بعزوه إليه ، ولا أذكر منه إلا ما استُحسن ، ولا انتقاد عليه ، وقد كنت أولاً سميته

(١) ما بين المعقوفتين إضافة من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة من (ظ) .

(٣) فى (ظ) : « مرادفاته » .

« نتائج الفكر في تناسب السور » لكونه من مستنتاجات ^(١) فكري كما
أشرت إليه ، ثم عدلت وسميته « تناسق الدرر في تناسب السور » ؛ لأنه
أنسب بالمسمى ، وأزيد بالجناس .

وبالله تعالى التوفيق ، وإياه أسأل حلاوة التحقيق ، بمنه ويُمْنِه .

* * *

(١) في (ظ) : « مستفتحات » .

مَقْدَمُهُ فِي تَرْتِيبِ السُّورِ

اختلف العلماء في ترتيب السور ، هل هو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم ، أو باجتهاد من الصحابة ، بعد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفى ، والقطع بذلك .

فذهب جماعة إلى الثانى ، منهم : مالك ، والقاضى أبو بكر^(١) فى أحد قوليه ، وجزم به ابن فارس^(٢) .

ومما استدل به لذلك : اختلاف مصاحف السلف فى ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على النزول ، وهو مصحف على ، كان أوله : « اقرأ » ثم البواقى على ترتيب نزول المكى ، ثم المدنى ، ثم كان أول مصحف ابن مسعود « البقرة » ثم « النساء » ثم « آل عمران » على اختلاف شديد ، وكذا مصحف أبى بن كعب وغيره ، على ما بينته فى الإتيقان^(٣) .

وفى المصاحف لابن أشته بسنده عن عثمان أنه أمرهم أن يتابعوا الطول^(٤) .

(١) هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتكلم المشهور ، صاحب كتاب إعجاز القرآن والتقريب وغيره ، توفى سنة ٤٠٣ هـ وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٤٨١) وشذرات الذهب (٢/٥٧) . انظر : قول الباقلانى فى الانتصار للقرآن (١/١٦٨) وما بعدها .

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازى اللغوى ، وهو من أكابر أئمة اللغة فى وقته ، محتججا به فى جميع الجهات غير منازع ، وكان يناظر فى الفقه ، توفى سنة ٣٩٥ هـ ، ترجمته فى إنباه الرواة (١/٩٤) وبيتة الدهر (٣/٤٠٠) وتلخيص ابن مكتوم (١٥) وكلام ابن فارس هذا فى « المسائل الخمس » ذكره الزركشى فى البرهان (١/٢٣٧) .

(٣) انظر هذا الاختلاف فى المصاحف فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١/٥١) ، والإتيقان : (١/٢١٦) وفيه أن ابن فارس يجزم بترتيب الطول والمئين والمفصل بالتوقيف ، أما وضع كل مجموعة تلو الأخرى فمن الصحابة .

(٤) انظر : الإتيقان (١/٢١٦) من طريق إسماعيل بن عياش إلى أبى محمد القرشى ، =

وزهب جماعة إلى الأول ، منهم : القاضي أبو بكر في أحد قوليهِ ،
وخلائق ، قال أبو بكر بن الأنباري^(١) : أنزل الله القرآن كُلَّهُ إلى سماء
الدنيا ، ثم فرقه في بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر
ينزل ، والآية جواباً لمستخبر ، ويوقف جبريلُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وسلم على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات
والحروف كله^(٢) عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم ، فمن قدم سورة أو
أخرها فقد أفسد نظم القرآن^(٣) .

وقال الكرمانى فى البرهان : ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى فى
اللوح المحفوظ^(٤) على هذا الترتيب ، وكان يعرض النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وسلم على جبريل ما اجتمع لديه منه ، وعرضه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم فى
السنة التى توفى فيها مرتين^(٥) ، وكذلك قال الطيبي^(٦) .

= وإسماعيل فيه كلام (الضعفاء ، من اسمه إسماعيل) ، وابن أشته هو محمد بن عبد الله بن
أشته أحد العلماء بالعربية والقراءات ألف فى المصاحف وشواذ القراءات ، توفى سنة ٣٠٦ هـ
(طبقات القراء : ١٨٤ / ٢) ، وانظر المصاحف ، لابن أبى داود (٣٤ و ٥٣) وما بعدها .
(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسين بن بيان بن دعامة الإمام أبو بكر بن
الأنبارى النحوى اللغوى ، كان صدوقاً فاضلاً ديتاً خيراً من أهل السُّنة ، توفى سنة ٣٠٤ هـ
طبقات النحويين واللُّغويين (١٧١) وبغية الوعاة (٢١٢ / ١) والسير (٢٧٤ / ١٥) وما بعدها .
(٢) فى المطبوعة : « كان » والمثبت من (ظ) ويؤيده ما فى المصادر كما عند الزركشى فى البرهان
(٢٦٠ / ١) ، والسيوطى نقلاً عنه فى الإتيان (٨٢ / ١) .
(٣) الجامع لأحكام القرآن : (٦٠ / ١) وأسرار التكرار فى القرآن ص ٢٣ ، والإتيان (٢١٧ / ١) ،
والبرهان (٢٦٠ / ١) والنص له ، وانظر المحرر الوجيز (٥٣ / ١) والانتصار للقرآن للباقلانى
(١٦٨ / ١ ، ١٦٩) .

(٤) فى المطبوعة : « وهو على » والمثبت يؤيده ما فى المصادر . وكذا نسخة (ظ) .
(٥) الكرمانى : محمود بن حزة بن نصر ، وكتابه « البرهان » نشرناه باسم « أسرار التكرار فى
القرآن » بدار الاعتصام بالقاهرة . انظر : ص ٢٣ .
(٦) الطيبي : بكسر الطاء ، الحسن بن محمد بن عبد الله ، الإمام المشهور العلامة فى المعقول
والعربية والمعانى والبيان . كان آية فى استخراج الدقائق من القرآن والسُّنن . مقبلاً على نشر
العلم متواضعاً ، حسن المعتقد . انظر : « بغية الوعاة » (١ / ٥٢٢ - ٥٢٣) .

وقال ابن الحصار^(١) : [ترتيب السور]^(٢) ، ووضع الآيات موضعها إنما كان بالوحي .

وقال البيهقي في المدخل : كان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتباً سورة وآياته على هذا الترتيب ، إلا الأنفال وبراءة للحديث الآتي فيها^(٣) .

ومال ابن عطية^(٤) إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال ، والحواميم ، والمفصل ، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوّض الأمر فيه إلى الأمة بعده^(٥) .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نصّ عليه ابن عطية ، ويبقى منها القليل يمكن أن يجرى فيه الخلاف ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران» (رواه مسلم)^(٦) وكحديث سعيد بن خالد أنه صلى الله عليه وسلم صلى

(١) ابن الحصار وهو : علي بن محمد بن محمد بن إبراهيم الخزرجي الإشبيلي ، له مؤلفات منها : أصول الفقه ، والناسخ والمنسوخ . توفي سنة ٦١١ هـ (التكملة لابن الأبار ٦٨٦) .

(٢) ما بين الحاصرين زدناه من الإتيان : (٢١٦/١) .

(٣) لم أقف على هذا النص بعد تتبع في المدخل ، واسم الكتاب : «المدخل إلى السنن الكبرى» للبيهقي ، ولعل هذا النص من النصوص المفقودة ، وهي من الجزء الأول ، كما أفاد محقق الكتاب (١١٦/١) . وانظر : «دلائل النبوة» للبيهقي (١٥٢/٧) ، والبرهان (٢٥٦/١) ، والإتيان (٨٣/١) ، والتجوير في علم التفسير (١٧٣) .

(٤) هو الإمام عبد الحق بن غالب بن عبد الرؤوف المعروف بابن عطية ، وتفسيره هو المعروف بالمححر الوجيز ، توفي بمدينة لورقة سنة ٥٤٦ هـ . الديباج المذهب (١٧٤ - ١٧٥) ، وبغية الوعاة (٧٣/٢ - ٧٤) .

(٥) المححر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية (٥٣/١ - ٥٤) .

(٦) أخرجه مسلم في فضائل القرآن مطولاً عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه (٩١٣/٢) ، وأبو داود (٨٨/١ ، ٨٩) مختصراً ، والهيثمي في مجمع الزوائد عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قرأ البقرة وآل عمران والنساء (٢٧٢/٢) ، وعزاه إلى أبي يعلى .

بالسبع الطوال في ركعة ، وأنه كان يجمع المفصل في ركعة » (أخرجه ابن أبي شيبة)^(١) وأنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا أوى إلى فراشه قرأ قل هو الله أحد ، والمعوذتين » (أخرجه البخارى)^(٢) وفيه عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال في بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنهن من العتاق الأول ، وهنّ من تِلادى »^(٣) .

وقال أبو جعفر النحاس^(٤) : المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم لحديث : « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفُضِّلَت بالمفصل » (أخرجه أحمد وغيره)^(٥) قال : فهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه من هذا الوقت هكذا .

(١) حديث (السبع الطوال) أخرجه أيضًا الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٢/٧) بلفظ (من أخذ السبع الطوال فهو خير) وعزاه للبخاري وأحمد ، وأخرج رواية أخرى (٢٧٤/٢) أنه قرأ السبع الطوال في ليلة .

وحديث (كان يقرأ المفصل في ركعة) أخرجه مسلم في فضائل القرآن (٢٠٤/٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مطولاً وفيه (عشرون سورة من المفصل في ركعة) ، والبخاري في التفسير (٢٤٠/٦) وفيه (ثمانى عشرة سورة من المفصل) .

(٢) أخرجه البخارى في التفسير عن عائشة رضى الله عنها (٢٢٣/٦) ، والترمذى في التفسير (٣٤٧/٩ ، ٣٤٨) بتحفة الأحوذى ، وفيه أنه كان يجمع يديه ، وينثف فيهما ، ويقرأ ، ويمسح بهما ما استطاع من جسده .

(٣) أخرجه البخارى في التفسير (١٨٩/٦) والعتاق : اللاتى نزلن قديماً بمكة . والتلاد : القديم .

(٤) هو الإمام أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادى المفسر المصرى النحوى المعروف بالنحاس . توفى سنة ٣٣٨ هـ ، وفيات الأعيان لابن خلكان (١٠٠/١) والسير (٤٠٢/١٥) والأنساب للسمعاني (٤٤/١٣) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٢٤/٣) عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٨/٧) وعزاه للطبراني أيضاً عن وائلة وأبى أمامة م : قلت : ورواه الترمذى في سننه برقم (٢٨٧٨) ، وقال : هذا حديث حسن ، وانظر معانى القرآن للنحاس (٤٨/١) .

وقال الحافظ ابن حجر : ترتيب معظم السور توقيفى ، لحديث أحمد وأبى داود عن أوس الثقفى قال : كنت فى وفد ثقيف ، فقال [لنا] ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طراً على حزبي من القرآن ، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه » . قال أوس : فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشر سورة ، وحزب المفصل ، من « ق » حتى نختم ^(٢) .

قال : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه فى المصحف الآن كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم ^(٣) : لترتيب وضع السور فى المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفى صادر من حكيم .

الأول : بحسب الحروف ، كما فى الحواميم ، وذوات ﴿ الر ﴾ .
الثانى : لموافقة آخر السورة لأول ما بعدها ^(٤) كآخر الحمد فى المعنى ، وأول البقرة .

الثالث : الوزن فى اللفظة كآخر ﴿ تبت ﴾ وأول (الإخلاص) .

الرابع : لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى ، كالضحى والم نشرح ^(٥) .

(١) ما بين المعقوفتين إضافة من « ظ » .

(٢) أخرجه أبو داود (١/١٤٠) ، وفيه (وحزب المفصل وحده) والإمام أحمد فى المسند (٥/٤٣) ، والحديث مضطرب فى الأصل ، وصححه من أبى داود ، وانظر البرهان فى علوم القرآن (٢٤٦/١ - ٢٤٧) .

(٣) هو الزركشى كما فى البرهان (١/٢٦٠) .

(٤) فى (ظ) « لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها » وانظر البرهان (١/٢٦٠) والجملة بالنص فيه .

(٥) انظر البرهان (١/٢٦٠) .

وقال بعضهم : إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدت في غاية المناسبة لما ختمت به السورة التي قبلها ، ثم [هو] ^(١) يخفى تارة ، ويظهر أخرى . وأخرج ابن أشتة ^(٢) عن ربيعة : أنه سئل : لِمَ قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة ، وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا ، وألّف القرآن على علم ممن ألّفه [به ومن كان معه فيه واجتماعهم] ^(٣) على علمهم بذلك ، فهذا مما ينتهي إليه ، ولا يُسأل عنه ^(٤) .

فإن قلت : فما عندك في ذلك ؟

قلت : الذي عندي أولاً : تحديد محل الخلاف ، وأنه خاص بترتيب سور الأقسام الأربعة ، وأما نفس الأقسام الأربعة ، من تقديم الطوال ، ثم المئين ، ثم المثاني ، ثم المفصل ، فهذا ينبغي أن يقطع بأنه توقيفي ، وأن يدعى فيه الإجماع ، وإن لم أر من سبقني إلى ذلك ، وإنما دعاني إلى هذا أمران :

أحدهما : ما تقدم من الأحاديث قريباً ، وحديث ابن عباس رضى الله عنهما الآتي في الأنفال .

والثاني : أن المصاحف التي وقع فيها الاختلاف في الترتيب اتفقت

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) في المطبوعة : « ابن أبي شيبه » تحريف ، والمثبت من (ظ) وهو الصواب ، وقد ذكر السيوطي هذا النص في الإتيان أيضاً (٨٤ / ١) ، وانظر تفسير القرطبي (٥٢ / ١) وفيه هذا الخبر كذلك .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) وهو الصواب ، ويؤيده ما جاء عند السيوطي في الإتيان (٨٤ / ١) وانظر تفسير القرطبي (٥٢ / ١) .

(٤) نقل القرطبي في تفسيره (٥٢ / ١) هذا الخبر ، وعزاه إلى ابن وهب في جامعه ، والنص مضطرب في الأصل ، وقومناه من القرطبي .

على ذلك ، فإن مصحف أبي بن كعب وابن مسعود كلاهما قدم فيه الطوال ، ثم المثاني ، ثم المفصل ، كمصحف عثمان ، وإنما اختلفا في ترتيب سور كل قسم كما بينت [ذلك] ^(١) في الإتقان ^(٢) .

[وهذا دليل قوى فى دعوى القطع بأن ذلك توقيفى] ^(٣) .

فإذا تحرر ذلك ، ونظرنا إلى محل الخلاف ، فالمختار عندى فى ذلك : ما قاله البيهقى ، وهو : أن ترتيب كل السور توقيفى ، سوى الأنفال وبراءة . ومما يدل على ذلك ويؤيده : توالى الحواميم ، وذوات ﴿الر﴾ ^(٤) والفصل بين المسبحات ، وتقديم ﴿طس﴾ على القصص ، مفصلاً بها بين النظيرتين [طسم الشعراء ، وطسم القصص] فى المطلع والطول ، وكذلك الفصل بين الانفطار والانشقاق بالمطففين ، وهما نظيرتان فى المطلع والمقصد ، وهما أطول منها ، فلولا أنه توقيفى لحكمة لتوالت المسبحات ، وأخرت (طس) عن القصص ، وأخرت ﴿المطففين﴾ أو قدمت ، ولم يفصل بين ﴿الر﴾ و ﴿الر﴾ ^(٥) .

وليس هنا شىء أعارض به سوى اختلاف مصحف أبي وابن مسعود رضى الله عنهما ، ولو كان توقيفياً لم يقع فيهما اختلاف ، كما لم يقع فى [ترتيب] الآيات ^(٦) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) الإتقان (٢٢٢ / ١ - ٢٢٤) نقلاً عن ابن أشته فى المصاحف من رواية أبى جعفر الكوفى وجريـر بن عبد الحميد ، وانظر المصاحف لابن أبى داود (٣٤ و ٥٣ - ٥٤) وما بعدها ، والانتصار للقرآن ، للبلاقانى (١ / ١٦٥) وما بعدها .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) فى (ظ) : « والراءات » .

(٥) انظر المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية (١ / ٥٤) وما بعدها .

(٦) قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مكانتها ومصادرها (٦٣) وما بعدها .

وقد منَّ الله علىَّ بجواب لذلك نفيس ، وهو : أن القرآن وقع فيه النسخ كثيرًا للرسم ، حتى لسور كاملة ، وآيات كثيرة ، فلا بدع أن يكون الترتيب العثماني هو الذي استقر في العرصة الأخيرة ، كالقراءات التي في مصحفه ، ولم يبلغ ذلك أيًّا وابن مسعود رضى الله عنهما ، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه في مصاحفهما من القراءات التي تخالف المصحف العثماني ، ولذلك كتب أبيّ في مصحفه سورة الحفد ، والخلع ، وهما منسوختان ^(١) .

فالحاصل أني أقول : ترتيب كل [من] ^(٢) المصاحف بتوقيف ، واستقر التوقيف في العرصة الأخيرة على [الترتيب العثماني ، كما أن جميع القراءات والمنسوخات] ^(٣) المثبتة في مصاحفهم بتوقيف ، واستقر التوقيف في العرصة الأخيرة على القراءات [العثمانية ورتب أولئك ما كان عندهم] ^(٤) ولم يبلغهم النسخ .

* * *

(١) انظر : الانتصار للقرآن ، للباقلاني (١/١٦٥) وما بعدها ، والإتقان (١/٢٢٣ ، ٢٢٦) عن ابن أشته في المصاحف وهما سورتا القنوت في الوتر ، قال الحسين بن المنادى في كتابه الناسخ والمنسوخ : وما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت في الوتر ، وتسمى بسورتى الخلع والحفد ، الإتقان (٣/٨٥) ، وهى : « اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثنى عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجدُّ بالكفار ملحق » انظر مجمع الزوائد (٩/١٢٠) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) في المطبوعة : « القراءات العثمانية ، ورتب أولئك على ما كان عندهم ، ولم يبلغهم ما استقر ، كما كتبوا القراءات المنسوخة » والمثبت من (ظ) وهو الصواب .

(٤) في المطبوعة : « المنسوخات » والمثبت من (ظ) .

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

افتتح سبحانه كتابه بهذه السورة ، لأنها جمعت مقاصد القرآن ،
ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس^(١) ،
فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال .

قال الحسن البصري^(٢) : إن الله أودع علوم الكتاب السابقة في
القرآن ، ثم أودع علوم القرآن في المفصل ، ثم أودع علوم المفصل في
الفاتحة ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة
(أخرجه البيهقي في شعب الإيمان)^(٣) .

وبيان اشتمالها على علوم القرآن قَرَّرَهُ الزمخشري^(٤) ، باشتمالها على
الثناء على الله بما هو أهله ، وعلى التعبد ، والأمر والنهي ، وعلى الوعد
والوعيد ، وآيات القرآن لا تخلو^(٥) عن هذه الأمور^(٦) .

[و] قال الإمام فخر الدين^(٧) : المقصود من القرآن كله تقرير أمور

(١) انظر البرهان (١٧/١ - ١٨) ، ومعاني القرآن ، للنحاس (٤٧/١) وما بعدها ، ونظم
الدرر في تناسق الآيات والصور ، للبقاعي (٢١/١) ومساعد النظر للإشراف على مقاصد
الصور ، للبقاعي (٦٧/٢) ، والكشاف (٤/١) بولاق ، ومن أسمائها : السبع المثاني ،
والقرآن العظيم ، والوافية ، والكنز ، الإتيقان (١٨٩/١ - ١٩١) .

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن البصري ؛ أحد سادات التابعين وكبرائهم ، توفي سنة ١١٠ هـ ، وفيات
الأعيان ، لابن خلكان (١٢٨/١) وآداب الشيخ الحسن ، لابن الجوزي ص ٢١ وما بعدها .
(٣) الشعب : ٢ ورقة (٨٧) أ . دار الكتب المصرية .

(٤) هو محمود بن عمر بن محمد الزمخشري وتفسيره : الكشاف ، من أشهر الكتب صاحب قدم
في الأدب واللغة والنحو والتفسير ، إمام المعتزلة ، توفي سنة ٥٣٨ هـ إنباه الرواة (٢٦٥/٣) .
(٥) في المطبوعة : « تخرج » والمثبت من (ظ) .


(٦) انظر : الكشاف (٤/١) وفيه (التعبد بالأمر والنهي) .

(٧) هو الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي صاحب التفسير المسمى : مفاتيح الغيب ، =

أربعة : الإلهيات ، والمعاد ، والنبوات ، وإثبات القضاء والقدر ،
 فقلوه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يدل على الإلهيات ، وقوله :
 ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يدل على نفى الجبر ، وعلى إثبات أن الكل
 بقضاء الله وقدره وقوله : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخر
 السورة يدل على إثبات قضاء الله ، وعلى النبوات ، فقد اشتملت هذه
 السورة على المطالب الأربعة ، التى هى المقصد الأعظم من القرآن ^(١) .

وقال البيضاوى ^(٢) : هى مشتملة على الحكم النظرية ، والأحكام
 العملية ، التى هى سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على مراتب
 السعداء ، ومنازل الأشقياء ^(٣) .

وقال الطيى : هى مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التى هى
 مناط الدين :

أحدها : علم الأصول ، ومعاقده معرفة الله عز وجل وصفاته ،
 وإليها الإشارة بقوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾  الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ومعرفة
 المعاد ^(٤) ، وهو المومأ إليه بقوله : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

وثانيها : علم الفروع ، وأُسسه العبادات ، وهو المراد بقوله :
 ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ^(٥) .

= توفي سنة ٦٠٦ هـ ، وفيات الأعيان (١/٤٧٤) (ويلاحظ أنه سوف يأتى ذكره كثيراً ،
 وأفاد منه السيوطى فى مواضع شتى) .

(١) مفاتيح الغيب (١/٦٥) .

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن على أبو الخير ، قاضى القضاة ناصر الدين البيضاوى ، كان
 إماماً علامة ، عارفاً بالفقه والتفسير والأصولين ، بغية الوعاة (٢/٥٠ - ٥١) .

(٣) تفسير البيضاوى (١/٣٥) بحاشية الشهاب الخفاجى .

(٤) فى (ظ) : « النبوات » .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

وثالثها : علم ما يحصل به الكمال ، وهو علم الأخلاق ، وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية ، والالتجاء إلى جناب الفردانية ، والسلوك لطريقة الاستقامة فيها ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿وَايَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ⑤ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿ .

ورابعها : علم القصص والإخبار عن الأمم السالفة والقرون الخالية ، السعداء منهم والأشقياء ، وما يتصل بها من وعد محسنهم ووعيده مسيئهم ، وهو المراد بقوله : [(١)] ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ .

قال : وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة ، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً ، فإنها واقعة في مطلع التنزيل ، والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق (٢) .

وقال الغزالي (٣) في « خواص القرآن » : مقاصد القرآن ستة : ثلاثة مهمة ، وثلاثة تنمة .

الأول : تعريف المدعو إليه ، كما أشير إليه بصدرها .

وتعريف الصراط المستقيم ، وقد صرح به فيها .

وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى ، وهو الآخرة ، كما أشير

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) شرح الكشف ، للطبي ، مخطوط بالأزهرية : ج ١ ورقة ٢٩ أ ، وانظر : نظم الدرر (٢٢ - ٢٣) ومساعد النظر للإشراف على السور ، للبقاعي (٦٧/٢) .

(٣) هو الشيخ الإمام البحر ، حجة الإسلام ، أعجوبة الزمان ، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي ، الشافعي ، صاحب التصانيف ، والذكاء المفرط ، توفي سنة ٥٠٥ هـ ، سير أعلام النبلاء (٣٢٢/١٩) وما بعدها .

إليه بقوله : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

والأخرى : تعريف أحوال المطيعين ، كما أشار إليه بقوله :
﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .

[حكاية أقوال الجاحدين ، وقد أُشير إليها بـ : ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾
و ﴿الضَّالِّينَ﴾] ^(١) .

وتعريف منازل الطريق ، كما أُشير إليه بقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ^(٢) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) خواص القرآن الكريم ص ٣٧ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قال بعضُ الأئمة^(١) : تضمنت سورة الفاتحة : الإقرار بالربوبية ، والالتجاء إليها في دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهود والنصارى . وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين ، وآل عمران مكمله لمقصودها . فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم ، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ، ولهذا ورد فيها كثير من المتشابه لما تمسك به النصارى .

فأوجب الحج في آل عمران ، وأما في البقرة فذكر أنه مشروع وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه^(٢) ، وكان خطاب النصارى في آل عمران ، كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر ، لأن التوراة أصل ، والإنجيل فرع لها ، والنبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم ، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر^(٣) كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ، ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذى اتفق عليه الأنبياء ، فخطب به جميع الناس ، والسور المدنية فيها خطاب من أقرّ بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، فخطبوا بيا أهل

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن ، للزركشى (١/ ٢٦٠) وما بعدها .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ « ١٩٦ » الآية .

(٣) ثبت في التاريخ أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاهد اليهود وأخرجهم من دار الإسلام ، ولم يحدث مثل ذلك للنصارى ، وإنما بدأت مجادلة إياهم بوفد نجران الذى تحدثت عنه سورة المائدة ، وأخرج الهيثمى في مجمع الزوائد أنه قال لعلى كرم الله وجهه : « يا على ، إن أنت وليت هذا الأمر بعدى ، فأخرج أهل نجران من جزيرة العرب » يريد النصارى (٩/ ١٣٠) .

الكتاب ، يا بنى إسرائيل ، يا أيها الذين آمنوا .

وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التى بين الناس ، وهى نوعان : مخلوقة لله ، ومقدورة لهم ، كالنَّسَبِ والصَّهْرِ ، ولهذا افتتحت بقوله : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ^(١) [ثم] ^(٢) قال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ ^(٣) فانظر إلى هذه المناسبة العجيبة ، والافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، حيث تضمنت الآية المفتوح بها ما فى أكثر السورة من أحكام : من نكاح النساء ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام وأن ابتداء هذا الأمر بخلق آدم ، ثم خلق زوجته منه ، ثم بث منهما رجالاً كثيراً ونساء فى غاية الكثرة .

[و] ^(٤) ما المائدة فسورة العقود ، [و] ^(٥) تضمنت بيان تمام الشرائع ، ومكملات الدين ، والوفاء بعهود الرسل ، وما أخذ على الأمة ، وبها تَمَّ ^(٥) الدين ، فهى سورة التكميل ، لأن فيها تحريم الصيد على الْمُحْرَمِ ، الذى هو من تمام الإحرام ، وتحريم الخمر الذى هو من تمام حفظ العقل والدين ، وعقوبة المعتدين من السُّرَّاق والمحاربين ، الذى هو من تمام حفظ الدماء والأموال ، وإحلال الطيبات ، الذى هو من تمام عبادة الله ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم كالوضوء ^(٦) والتيمم ، والحكم بالقرآن على كل ذى دين .

(١) سورة النساء الآية : ١ .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من البرهان للزركشى ، وكذا فى (ظ) .

(٣) سورة النساء : ١ ، وانظر : البرهان فى علوم القرآن (١/ ٢٦٠ - ٢٦١) والنص له .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) فى المطبوعة : « ونهاية » تحريف ، والمثبت من (ظ) ويؤيده ما فى المصادر . انظر : البرهان فى علوم القرآن (١/ ٢٦٢) .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) . نظر : البرهان (١/ ٢٦٢) .

ولهذا كثر فيها لفظ الإكمال والإتمام ، وذكر فيها : أن من ارتد عوض الله بخير منه ، ولا يزال هذا الدين كاملاً ، ولهذا ورد أنها آخر ما نزل ^(١) لما فيها من إرشادات الختم والتمام . وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب ^(٢) . انتهى .

وقال بعضهم : افتتحت البقرة بقوله : ﴿ اَلَمْ يَكُنْ لَّكَ آيَاتُ الْكُتُبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فإنه إشارة إلى الصراط المستقيم في قوله : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ كأنهم ^(٣) لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم : ذلك الصراط الذي سألتهم ^(٤) الهداية إليه ، كما أخرج ابن جرير وغيره من حديث علي عليه السلام مرفوعاً : « الصراط المستقيم كتاب الله » ^(٥) . وأخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن مسعود موقوفاً ^(٦) . وهذا معنى حسن يظهر فيه سر ارتباط البقرة بالفاتحة ^(٧) .

وقال الخويي ^(٨) : أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة ، لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ما طلبتم : هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه ، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک عن عائشة رضى الله عنها (٣١١/٢) وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، والإمام أحمد في المسند عن معاوية بن صالح عن عائشة رضى الله عنها (١٨٨/٦) ، انظر : البرهان (٢٦٢/١) .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، للزركشى (٢٦١/١ - ٢٦٢) .

(٣) في المطبوعة : « فإنهم » والمثبت من (ظ) .

(٤) في المطبوعة : « سألتهم » تحريف . والمثبت من (ظ) .

(٥) أخرجه ابن جرير عن علي من حديث حمزة الزيات ، جامع البيان (١٧٣/١) .

(٦) المستدرک (٨٣/٤) .

(٧) انظر : البرهان في علوم القرآن (٣٨/١) والنص له .

(٨) هو أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر أبو العباس ، ونسبته إلى خوى مدينة بأذربيجان ، توفي بدمشق عام ٦٢٧ هـ . انظر : عيون الأنباء (١٧١/٢) ، شذرات الذهب (٢٥/٣) .

ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم في الفاتحة ، فذكر الذين على هدى من ربهم ، وهم المنعم عليهم ، والذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وهم الضالون ، والذين باءوا بغضب من الله ، وهم المغضوب عليهم^(١) . انتهى .

[و]^(٢) أقول : قد ظهر لي بحمد الله وجوها من هذه المناسبات :

أحدها : أن القاعدة التي استقرأتها^(٣) القرآن : أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها ، وشرح له ، وإطنا ب لإيجازه ، وقد استمر^(٤) معى ذلك في غالب سور القرآن ، طولها وقصيرها ، وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة .

فقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تفصيله : ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدة آيات ومن الدعاء في قوله ﴿ أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ « ١٨٦ » الآية ، وفي قوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ « ٢٨٦ » ، وبالشكر في قوله : ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ « ١٥٢ » .

وقوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تفصيله قوله : ﴿ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا

(١) ذكر السيوطي : أن للخوي تفسيرا نقل عنه في الإتيان (٧/٢ ، ١٢ و ٢٩/٣ و ١٤٤/٤)

ولم نعر عليه ، ولعل هذا النقل منه .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) في المطبوعة : « استقر بها » والمثبت من (ظ) .

(٤) في المطبوعة : « استقر » والمثبت من (ظ) .

وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢١ ، ٢٢﴾ ، وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾ ، ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر^(١) ، وهو أشرف الأنواع من العالمين ، وذلك شرح إجمال^(٢) ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وقوله : ﴿الزَّكَاةَ الرَّحِيمَ﴾ قد أوماً إليه بقوله في قصة [توبة] ^(٣) آدم ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٤﴾ ، وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة [بقوله] : ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ﴾ ﴿١٢٦﴾ ، فقال ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ ﴿١٢٦﴾ .

وذلك لكونه رحماناً . وما وقع في قصة بني إسرائيل : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ ﴿٥٢﴾ إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦٣﴾ . وذكر آية الدين^(٤) إرشاداً للطلالين من العباد^(٥) ، ورحمة بهم . ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر ، وما لا طاقة لهم به ، وختم بقوله : ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ ﴿٢٨٦﴾ ،

(١) وذلك في قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلى قوله : ﴿فَلَقَّحْ ءَادَمُ مِنْ رَّبِّهِ كُلَّتِي فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ ﴿٣٠ - ٣٧﴾ .

(٢) في المطبوعة : « لإجمال » والمثبت من (ظ) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، ويلاحظ أن الآية المذكورة بعدها تتعلق بقوم موسى واتخاذهم العجل ، وأمر بالتوبة وتوبتهم ، لكن ما يتعلق بتوبة آدم ورد في قوله تعالى : ﴿فَلَقَّحْ ءَادَمُ مِنْ رَّبِّهِ كُلَّتِي فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣٧﴾ وكذلك قوله عز شأنه : ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (طه : ١٢٢) .

(٤) هي قوله : ﴿يَتَأْتِيهَا الْوُيُوتُ ءَامَتًا إِذَا تَدَايَنُ يَدَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاسْتَبُوهُ﴾ ﴿٢٨٢﴾ الآية .

(٥) في (ظ) « إرشاداً لعباده » .

وذلك شرح قوله : ﴿ اَلْخَيْرَ النَّجِيْمَ ﴾ .

وقوله : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة : ٤) . تفصيله : ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع ، ومنها قوله : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ « ٢٨٤ » . والدين [في الفاتحة] : الحساب [في البقرة] .

وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية ، وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل ، فذكر فيها : الطهارة ، والحیض ، والصلاة ، والاستقبال ، وطهارة المكان ، والجماعة ، وصلاة الخوف ، وصلاة الجمع ، والعید ، والزكاة بأنواعها ، كالنبات ، والمعادن ^(١) ، والاعتكاف ، والصوم ، وأنواع الصدقات ، والبر ، والحج ، والعمرة ، والبيع ، والإجارة ، والميراث ، والوصية ، والوديعة ، والنكاح ، والصداق ، والطلاق ، والخلع ، والرجعة ، والإيلاء ، والعدة ، والرِّضاع ، والنِّفقات ، والقصاص ، والديات ، وقِتَالُ الْبُغَاةِ ، والرِّدَّةُ ، والأشربة ، والجهاد والأطعمة والذبائح ، والأيمان ، والتَّذور ، والقضاء ، والشهادات والعقود .

فهذه أبواب الشريعة كُلُّهَا مذكورة في هذه السورة ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . شامل لعلم الأخلاق . وقد ذكر منها في هذه السورة الجَمْعُ الْغَفِيرُ ، من التوبة ، والصبر ، والشكر ، والرضى ، والتفويض ، والذكر ، والمراقبة ، والخوف ، وإِلاَنَةِ الْقَوْلِ .
وقوله : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخره . تفصيله ^(٣) :

(١) في (ظ) : « النبات والمعدن » .

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٦٠ - ٢٦١) .

(٣) في « ظ » : تفسيره .

ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء ، ومن حاد عنهم من النصارى ، ولهذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم ، فهي من صراط الذين أنعم عليهم ، وقد حاد عنها اليهود والنصارى معاً ، ولذلك قال في قصتها : ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ «١٤٢» . تنبيهاً على أنها الصراط الذي سألوا الهداية إليه .

ثم ذكر : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ «١٤٥» . وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم . ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم . ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ «٢١٣» . فكانت هاتان الآيتان تفصيل إجمال : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة .

وأيضاً قوله أول السورة : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ «٢» إلى آخره في وصف الكتاب ، إخبار بأن الصراط الذي سألوا الهداية إليه هو : ما تضمنه الكتاب وإنما يكون هداية لمن اتصف بما ذكر [من صفات المتقين] . ثم ذكر أحوال الكفرة ، ثم أحوال المنافقين ، وهم من اليهود ، وذلك [أيضاً] ^(١) تفصيل لمن حاد عن الصراط المستقيم ، ولم يهتد بالكتاب ^(٢) .

وكذلك قوله هنا : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ «١٣٦» الآية . فيه تفصيل النبيين المنعم عليهم . وقال في آخرها : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ «١٣٦» تعريفاً

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) هذا تفصيل للصراط المستقيم عن طريق التبصير بأعداء الصراط المستقيم ، والتحذير منهم على وجه التفصيل ، وسيأتي تفصيل للصراط المستقيم في آل عمران عن طريق التبصير بالعوائق النفسية التي تحول دون الإنسان وسلوك الصراط المستقيم باعتبار النفس عدواً للإنسان ، وبهذا تظهر عظمة الأسلوب القرآني في الإجمال والتفصيل ، وفي استيعابه كل شيء .

بالمغضوب عليهم والضالين الذين فَرَّقُوا بين الأنبياء . ولذلك عقبها بقوله : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا ﴾ « ١٣٧ » . أى : إلى الصراط المستقيم ، صراط المنعم عليهم كما اهتديتم ^(١) .

فهذا ما ظهر لى ، والله أعلم بأسرار كتابه .

الوجه الثانى : أن الحديث والإجماع على تفسير ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ باليهود ، والضالين بالنصارى ^(٢) ، وقد ذكروا فى سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم فى الزمان ، فعقب بسورة البقرة ، وجميع ما فيها [من] خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة ، وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب ^(٣) .

ثم بسورة آل عمران ، وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى ^(٤) ، فإن ثمانين آية من أولها نازلة فى وفد نصارى نجران ، كما ورد فى سبب نزولها ^(٥) وَخُتِمَتْ بقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١٩٩) ، وهى فى النجاشى وأصحابه من

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١٢/١) وما بعدها ، ومساعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٦٧/٢) وما بعدها .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٣٧٨/٤) والترمذى (٢٨٦/٨ - ٢٨٨) بتحفة الأحوذى تفسير النبى صلى الله عليه وسلم للمغضوب عليهم والضالين : باليهود والنصارى عن عدى بن حاتم وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٦/١) .

(٣) وإنما جاء على أسلوب الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّهَابَ وَالصَّابِغِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ « ٦٢ » ، وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى ﴾ « ١١١ » الآية .

(٤) فى (ظ) : « خطابهم للنصارى » .

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم (٤٠/٢) لمعرفة سبب النزول ، وقصة وفد نجران فى سيرة ابن هشام (٥٧٣/١) وما بعدها .

مؤمنى النصرى ، كما ورد به الحديث ^(١) . وهذا وجه بديع فى ترتيب السُورَتَيْنِ ، كأنه لما ذكر فى الفاتحة الفريقين ، قص فى كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها ، ولهذا كان صدر سورة النساء فى ذكر اليهود ، وآخرها فى ذكر النصرى ^(٢) .

والوجه الثالث : أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ، ولهذا سُمِّيَتْ فى أثر : « فسطاط القرآن » ^(٣) . الذى هو : المدينة الجامعة ، فناسب تقديمها على جميع سوره .

الوجه الرابع : أنها أطول سورة فى القرآن ، وقد افتتح بالسبع الطوال ^(٤) ، فناسب البداءة بأطولها .

الوجه الخامس : أنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فناسب الابتداء ^(٥) بها ، فإن للأولية نوعاً من الأولوية .

الوجه السادس : أن سورة الفاتحة لما ^(٦) ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالاً ، وخُتمت سورة البقرة بالدعاء بألا يسلك بهم طريقهم فى المؤاخذه بالخطأ والنسيان ، وحمل الإصر ، وما لا طاقة لهم به تفصيلاً ، وتضمن آخرها

(١) فى إسلام النجاشى . انظر : البخارى فى الجناز (١٠٨/٢) ومسلم فى الجناز (٥٤/٣ ، ٥٥) وانظر : تفسير الطبرى (٤٩٦/٧) .

(٢) وذلك قوله فى النساء : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء : ٤٦) وما بعدها وآخرها قوله : ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (النساء : ١٧١) الآية .

(٣) أخرجه الدارمى (٤٤٦/٢) عن خالد بن معدان .

(٤) السبع الطوال هى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس ، وسيأتى سبب وضع الأنفال والتوبة بينها .

(٥) فى المطبوعة : «البداءة» ، والمثبت من (ظ) .

(٦) فى المطبوعة : «كما» والمثبت من (ظ) .

أَيْضًا الإِشَارَةَ إِلَى طَرِيقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمُ وَالضَّالِّينَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِنَا ﴾ « ٢٨٥ » فَتَأَخَّتِ السُّورَتَانِ وَتَشَابَهَتَا فِي الْمَقْطَعِ ،
وَذَلِكَ مِنْ وَجْهِ الْمُنَاسَبَةِ فِي التَّتَالِيِ وَالتَّنَاسُقِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ
التَّأْمِينُ فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَمَا هُوَ مُشْرُوعٌ فِي آخِرِ الْفَاتِحَةِ ^(١) ، فَهَذِهِ
سِتَّةُ وَجُوهِ ظَهَرَتْ لِي ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

* * *

(١) كَانَ مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : (آمِينَ) آخِرُ الْبَقَرَةِ كَمَا أَخْرَجَ عَنْهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، رَوَاهُ وَكِيعٌ
عَنْ سَفْيَانَ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ رَجُلٍ ، عَنْ مَعَاذٍ (تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ٥٠٩ / ١) .

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

قد تقدّم ما يؤخذ منه مناسبة وضعها .

وقال الإمام : لما كانت هذه السورة قرينة سورة البقرة ، وكالمكملة لها ، افتتحت بتقرير ما افتتحت به تلك ، وصرح في منطوق مطلعها بما طوى في مفهوم [مطلع] ^(١) تلك ^(٢) .

وأقول : قد ظهر لى بحمد الله وجوه من المناسبات .
أحدها : مراعاة القاعدة التى قررتها ، من شرح كل سورة لإجمال ما فى السورة قبلها ، وذلك هنا فى عدة مواضع .

منها : ما أشار إليه الإمام ، فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه . وقال فى آل عمران : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ «٣» : وذلك بسط وإطناب ، لنفى الريب عنه .

ومنها : أنه ذكر فى البقرة إنزال الكتاب مجملاً ، وقسمه هنا إلى آيات محكمات ، ومتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله ^(٣) .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (البقرة : ٤) [مجملاً] ^(٤) ، وقال هنا : ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) مفهوم مطلع البقرة : الدعوة إلى الإيمان بالله فى قوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (البقرة : ٣) ، وهو مضرّح به فى مطلع هذه بقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمْ يَلِكُ الْفَيْيُومُ ﴾ «٢» ، وانظر مفاتيح الغيب (١/ ٣٢٠) وما بعدها .

(٣) وذلك قوله : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ «٧» الآية .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

لِلنَّاسِ ﴿٣ ، ٤﴾ مفصلاً . وصرح بذكر الإنجيل هنا ، لأن السورة خطاب للنصارى ، ولم يقع التصريح به في سورة البقرة بطولها ، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة ؛ لأنها خطاب لليهود .

ومنها : أن ذكر القتال وقع في سورة البقرة مجملًا بقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١٩٠ ، ٢٤٤) [وقوله] : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ (البقرة : ٢١٦) وفصلت هنا قصة أحد بكمالها ^(١) .

ومنها : أنه أوجز في البقرة ذكر المقتولين في سبيل الله بقوله : ﴿ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة : ١٥٤) وزاد هنا : ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١٦٩) فَرَحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ (١٦٩ ، ١٧٠) الآيتين . وذلك إطناب عظيم .

ومنها : أنه قال في البقرة : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُكُمْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (البقرة : ٢٤٧) . وقال هنا : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٦) . فزاد إطنابًا وتفصيلاً .

ومنها : أنه حذر من الرباء في البقرة ، ولم يزد على لفظ الربا إيجازًا ^(٢) وزاد هنا قوله ^(٣) : ﴿ أَضْعَفًا مَضْعَفَةً ﴾ (١٣٠) وذلك ^(٤) بيان وبسط .

(١) وذلك في قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ (١٥٢) إلى ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتُمْ أَوْ قَاتَلْتُمْ لِرَبِّكُمْ تَحْتَمِلُونَ ﴾ (١٥٨) .

(٢) وذلك في قوله : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (البقرة : ٢٧٥) ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ ﴾ (البقرة : ٢٧٦) .

(٣) كلمة : « قوله » ليست في (ظ) .

(٤) في (ظ) : « وهو » .

ومنها : أنه قال في البقرة : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ ﴾ (البقرة : ١٩٦) وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالاً ، وفصله هنا بقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ « ٩٧ » . وزاد : بيان شرط الوجوب بقوله : ﴿ مِنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ « ٩٧ » . ثم زاد : تكفير من جحد وجوبه بقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ « ٩٧ » .

ومنها : أنه قال في البقرة في أهل الكتاب : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ ﴾ (البقرة : ٨٣) . فأجمل القليل ، وفصله هنا بقوله : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ « ١١٣ ، ١١٤ » الآيتين .

ومنها : أنه قال في البقرة : ﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلَصُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٩) . فدل بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضاً لا تصريحاً ، وكذلك قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة : ١٤٣) . في تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام ، وأتى في هذه [السورة] ^(١) بصريح البيان فقال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ « ١١٠ » . فقوله : ﴿ كُنْتُمْ ﴾ أصرح في قدم ذلك من ﴿ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ ثم زاد [بيان] وجه الخيرية بقوله : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ « ١١٠ » ^(٢) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) ومن الربط الوثيق بين الفاتحة والبقرة وآل عمران : أن الصراط المستقيم ذكر مجملًا في الفاتحة ، ثم عينه في أول البقرة بقوله ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ ثم عين طريق السير عليه في آل عمران بقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْنِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ « ١٠١ » .

ثم فصل وسيلة الاعتصام بالله ، بالاعتصام بحبل الله ، فلما كان الصراط المستقيم دقيقاً جداً ، ويحتاج السائر عليه إلى غاية اليقظة ، حث الله على الاعتصام بكتاب الله ، وسماء حبلًا ليناسب الصراط الدقيق ، حيث يحمى السائر عليه من الزلل ، وحذر من الفرقه ، =

ومنها : أنه قال في البقرة : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ (البقرة : ١٨٨) . الآية . وبسط الوعيد هنا بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ ﴾ (٧٧) . الآية ، وصدره بقوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ ﴾ (٧٥) .

فهذه عدة مواضع وقعت في البقرة مجملة ، وفي آل عمران تفصيلها .

الوجه الثاني : أن بين هذه السورة وسورة البقرة اتحادًا ، وتلاحمًا متأكدًا ، لما تقدم من أن البقرة بمنزلة إزالة الشبهة ، ولهذا تكرر هنا ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب : من إنزال الكتاب ، وتصديقه للكتب قبله ، والهدى إلى الصراط المستقيم^(١) . وتكررت هنا آية : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ ﴾ (البقرة : ١٣٦) . بكمالها ، ولذلك أيضًا ذكر في هذه ما هو تال لما ذكر في تلك ، أو لازم في تلك ، أو لازم له . فذكر هناك خلق الناس ، وذكر هنا تصويرهم في الأرحام^(٢) ، وذكر هناك مبدأ خلق آدم ، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده^(٣) ، والطف من ذلك : أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم ، وذكر

= ودعا إلى التذكير الدائم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعتبر بمثابة التعليم الدائم ، وتصحيح الأخطاء الناشئة عن الهوى . وانظر لزيادة البيان (نظم الدرر للبقاعى الجزء الأول ورقة : ١٧٧ ، أ ، ب) .

(١) وذلك قوله في أول آل عمران : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ مِنْ قَبْلِ هَٰذِهِ لَتَأْتِيَ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿ ٣ ، ٤ 》 .

(٢) وذلك قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُمَوِّنُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ « ٦ » .

(٣) خلق آدم في البقرة في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة : ٣٠) وخلق أولاده في آل عمران في قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُمَوِّنُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ ﴾ « ٦ » .

فى هذه نظيره فى الخلق من غير أب ، وهو عيسى عليه السلام ^(١) ،
ولذلك ضرب له المثل بآدم ، واختصت البقرة بآدم لأنها أول السور ،
وآدم أول فى الوجود وسابق ، ولأنها الأصل ، وهذه كالفرع والتممة
لها ، فمختصة بالإعراب ^(٢) [والبيان] .

ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا فى مريم ما قالوا ، وأنكروا وجود
ولد بلا أب ، ففوتحوا بقصة آدم ، لتثبت فى أذهانهم ، فلا تأتى قصة
عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها ^(٣) من جنسها .

ولأن قصة عيسى قيست على قصة آدم فى قوله : ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾
« ٥٩ » الآية ، والمقيس عليه لابد وأن يكون معلوماً ، لتتم الحجة
بالقياس ، فكانت قصة آدم والسورة التى هى فيها جديرة بالتقدم .

ومن وجوه تلازم السورتين : أنه قال فى البقرة فى صفة النار :
﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤) ، ولم يقل فى الجنة : أعدت للمتقين ،
مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً ^(٤) ، وقال ذلك فى آل عمران ^(٥)
فى قوله : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ « ١٣٣ » ،
فكان السورتين بمنزلة سورة واحدة .

وبذلك يعرف أن تقديم آل عمران على النساء أنسب من تقديم
النساء عليها .

(١) وذلك قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾
« ٥٩ » .

(٢) فى (ظ) : « فخصت بالأغرب » .

(٣) فى المطبوعة ما يشبهها وما أثبتناه من (ظ) .

(٤) وذلك قوله فى البقرة : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥) إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة : ٥ ، ٦) .

(٥) فى المطبوعة : « آخر آل عمران » .

وأمر آخر استقرأته ، وهو : أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد ، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد . وفي السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسب لأولها ، وآخر آل عمران مناسب لأول البقرة ، فإنها افتتحت بذكر المتقين ، وأنهم المفلحون ، وختمت آل عمران بقوله : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ « ٢٠٠ » .

وافتتحت البقرة بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (البقرة : ٤) ، وختمت آل عمران بقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ « ١٩٩ » . فله الحمد على ما ألهم .

وقد ورد أنه لما نزلت : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (البقرة : ٢٤٥) . قالت ^(١) اليهود : يا محمد ، افتقر ربك ، فسأل عباده القرض ^(٢) ، فنزل قوله : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ « ١٨١ » ^(٣) ^(٤) فذلك أيضا من تلازم السورتين .

ووقع في البقرة حكاية عن إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ (البقرة : ١٢٩) الآية ، ونزل في هذه : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ﴾ « ١٦٤ » ، وذلك أيضا من تلازم السورتين .

* * *

(١) في المطبوعة : « قال » والمثبت من (ظ) .

(٢) في المطبوعة : « القرض عبادة » من (ظ) .

(٣) في المطبوعة : « تقدمت وجوه » ، بل تقدم وجه واحد ذكره المصنف ، ويؤيد المثبت كذلك نسخة (ظ) .

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير (٤٤٢/٧) ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه .

سُورَةُ النِّسَاءِ

قد تقدّم وجه مناسبتها .

وأقول : هذه السورة أيضًا شارحة لبقية مجملات سورة البقرة .

فمنها : أنه أجمل في البقرة قوله : ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة : ٢١) ، وزاد هنا : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ ﴿١﴾ .

وانظر لما كانت آية التقوى في سورة البقرة غاية ، -جعلها في أول هذه السورة التالية لها مبدأ^(١) .

ومنها : أنه أجمل في سورة البقرة : ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة : ٣٥) ، وبين هنا أن زوجته خلقت منه في قوله : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ﴿١﴾ .

ومنها : أنه أجمل في البقرة آية اليتامى ، وآية الوصية ، والميراث ، والوارث ، في قوله : ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ (البقرة : ٢٣٣) ، وفصل ذلك في هذه السورة أبلغ تفصيل^(٢) .

و[منها أنه]^(٣) فصل هنا من الأنكحة ما أجمله هناك .

(١) آية التقوى في البقرة هي : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة : ٢) ، وهي غاية ، لأن الهداية بالكتاب وبآياته لا تكون إلا للمتقين ، فالتقوى غاية الهداية ، أما في سورة النساء فقد بدأ الله الأمر بها في قوله : ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ﴿١﴾ الآية ، وبين وسائل تحقيقها في نفس الآية .

(٢) وذلك في الآيات : (٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٣٣ ، ١٧٦) من سورة النساء .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

ومنها : أنه ^(١) قال في البقرة : ﴿وَلَا أَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾
(البقرة : ٢٢١) فذكر نكاح الأُمّة إجمالاً ، وفصل هنا شروطه ^(٢) .

ومنها : أنه ذكر الصداق في البقرة مجملاً بقوله : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ (البقرة : ٢٢٩) وشرحه هنا مفصلاً ^(٣) .

ومنها : أنه ذكر هناك الخُلع ، وذكر هنا أسبابه ودواعيه ، من
النشوز وما يترتب عليه ، وبعث الحكمين ^(٤) .

ومنها : أنه فصل هنا من أحكام المجاهدين ، وتفضيلهم درجات ،
والهجرة ، ما وقع هناك مجملاً ، أو مرموزاً ^(٥) .

وفيهما من الاعتلاق بسورة الفاتحة : تفسير : ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ
عَلَيْهِمْ﴾ في قوله ^(٦) : ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ «٦٩» .

وأما وجه اعتلاقها بآل عمران فمن وجوه :

-
- (١) في المطبوعة : « فإنه قال » ، والمثبت من (ظ) .
 - (٢) وذلك في قوله : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ «٢٥» الآية .
 - (٣) وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا﴾
إلى ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ «٢٠ ، ٢١» .
 - (٤) قال عن الخُلع في البقرة : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقَهَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة :
٢٢٩) الآية ، وهنا قال : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إلى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا
فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ «٣٤ ، ٣٥» . وهذا في أسباب الخُلع .
 - (٥) قال هنا : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى ﴿وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ «٩٥ - ٩٦» ، وقال هناك : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ
أَحْيَاءٌ﴾ (البقرة : ١٥٤) الآية ، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ (البقرة : ٢١٦)
الآية ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾
(البقرة : ٢١٨) .

(٦) في المطبوعة : « بقوله » ، والمثبت من (ظ) .

منها : أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، وافتتحت هذه السورة به ^(١) وذلك ^(٢) من أكد ^(٣) وجوه المناسبات في ترتيب السور ، وهو نوع من [أنواع] ^(٤) البديع يسمى : تشابه الأطراف .

ومنها : أن سورة آل عمران ذكر فيها قصة أحد مستوفاة وذكر في هذه السورة ذيلها ، وهو قوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ « ٨٨ » ، فإنها نزلت لما اختلف الصحابة فيمن رجع من المنافقين من غزوة أحد ، كما في الحديث ^(٥) .

ومنها : أن في آل عمران ذكرت الغزوة التي بعد أحد بقوله : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ (آل عمران : ١٧٢) ^(٦) وأشير إليها هنا بقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ « ١٠٤ » الآية ^(٧) .

وبهذين الوجهين ^(٨) عرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من

(١) ختمت آل عمران بقوله : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) وافتتحت بقوله : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ (النساء : ١) .

(٢) في المطبوعة : « وهذا » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) في المطبوعة : « أكبر » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) أخرجه البخارى في التفسير (٥٩/٦) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، ومسلم في المنافقين (١٢٨/٨) ، وأحمد في المسند (١٨٤/٥) ، وفيه : أن الصحابة اختلفوا فيمن رجع عن غزوة أحد ، فقال فريق : بقتلهم ، وقال فريق : لا ، فنزلت .

(٦) هو يوم حراء الأسد ، كان عقب أحد ، وكان الكفار قد ندموا أن لم يدخلوا المدينة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فندب المسلمين للخروج على ما بهم من جراح ، ليربهم أن بهم قوة وجلدا . انظر : البخارى (١٣٠/٥) والمستدرک (٢٩٨/٢) وسيرة ابن هشام (١٠١/٢) .

(٧) ومن أسرار الترتيب أنه تعالى زاد في سورة محمد تفصيل سبب النهي عن الوهن في قوله : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٥) ، فهناك واقعة خاصة ، وهذا عام في قانون الحرب .

(٨) في المطبوعة : « الوجين » تحريف .

تقديمها عليها في مصحف ابن مسعود ؛ لأن المذكور هنا ذيل ما في آل عمران وتابعه ولاحقه ^(١) ، فكانت بالتأخير أنسب .

ومنها : أنه [لما] ^(٢) ذكر في آل عمران قصة خلق عيسى بلا أب ، وأقيمت له الحجة بآدم ، وفي ذلك تبرئة لأمه ، خلافا لما زعم اليهود ، وتقريراً لعبوديته ، خلافاً لما ادعته النصارى ، وذكر في هذه السورة الرد على الفريقين معاً : فرد على اليهود بقوله : ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ « ١٥٦ » وعلى النصارى بقوله : ﴿ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ « ١٧١ ، ١٧٢ » .

ومنها : أنه لما ذكر في آل عمران : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (آل عمران : ٥٥) ورد هنا على من زعم قتله بقوله : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ « ١٥٧ » بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿ « ١٥٨ ، ١٥٧ » .

ومنها : أنه لما قال في آل عمران في التشابه ^(٣) : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران : ٧) . قال هنا : ﴿ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ « ١٦٢ » الآية .

ومنها : أنه لما قال في آل عمران : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْكَ

(١) في المطبوعة : « ولاحقه وتابعه » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) التشابه في القرآن يأتي على معنيين : أولهما : التماثل في اللفظ وهو غير مراد هنا ، والثاني : ما جاء مؤيداً للواجبات بأصله ، راداً بوصفه ، فتشابه على السامع علمه من حيث خالف حجة العقل من وجه دون وجه (الأمَد الأقصى ورقة ١٢٠ أ) .

$\gamma \Sigma$

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وقد تقدّم وجه في مناسبتها .

وأقول : هذه السورة أيضًا شارحة لبقية مجملات سورة البقرة ، فإن آية الأطعمة والذبائح فيها أبسط منها في البقرة ^(١) ، وكذا ما حرمه ^(٢) الكفار تبعًا لآبائهم في البقرة موجز ^(٣) وفي هذه السورة مطنب أبلغ إطناب في قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ ﴾ . . . ﴿ ١٠٣ ، ١٠٤ 》 .

وفي البقرة ذكر القصاص في القتل ^(٤) ، وهنا ذكر أول من سن القتل ، والسبب الذي لأجله وقع ، وقال : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

(١) قال تعالى هنا : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيسَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ إلى ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ « ٣ - ٥ » ، أما في البقرة فلم يكن هذا التفصيل ، إذ قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفْرًا مِنْ طَبِئَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (البقرة : ١٧٢ ، ١٧٣) .

(٢) في المطبوعة : « أخرجه » ، تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٣) في البقرة : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنْهَا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ (البقرة : ١٦٨) .

(٤) من دلائل الترتيب أنه قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ (البقرة : ١٧٨) ، ثم زاد بيانًا في نفس السورة ، فقال : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٩) ، ثم قال : ﴿ وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ ﴾ (البقرة : ١٩٤) ، ثم ذكر قتل الخطأ والنسيان في النساء فقال : ﴿ وَمَا كَانِ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء : ٩٢) ، وزاد تفصيل القصاص فيما ساقه المؤلف في الآية (٢٢) المائدة ، ثم فصل أحكام القصاص في قوله : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالْيَدَ بِالْيَدِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة : ٤٥) .

وهذا تدرج بديع ويدل على إحكام الترتيب والتلاحم .

النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ ، وذلك أبسط من قوله [في البقرة] : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٩) .

وفي البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ (البقرة : ٥٨) ، وذكرت ^(١) قصتها [هنا مطولة . وذكر في البقرة من ارتد مقتصرًا عليه ، وقال] ^(٢) هنا : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ « ٥٤ » .

وفي البقرة قصة الأيمان موجزة ، وزاد هنا بسطًا بذكر الكفارة ^(٣) .

وفي البقرة قال في الخمر والميسر : ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ لَكَاكِبٌ مِنْهُمَا ﴾ (البقرة : ٢١٩) . وزاد في هذه السورة ذمها ، وصرح بتحريمها ^(٤) .

وفيهما من الاعتلاق بسورة الفاتحة : بيان المغضوب عليهم والضالين في قوله : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ « ٦٠ » الآية . وقوله : ﴿ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ « ٧٧ » .

وأما اعتلاقها بسورة النساء ، فقد ظهر لى فيه وجه بديع جدًا . وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحًا وضمنًا ،

(١) في المطبوعة : « وذكر في » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) قال هنا : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُمْهُ لِمَطْعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ ﴾ « ٨٩ » .

وقال في البقرة : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٢٥) .

(٤) في هذه السورة قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ « ٩٠ ، ٩١ » الآية .

فالصريح : عقود الأنكحة ، وعقد الصداق ، وعقد الحلف ، في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَعَانُوهُمْ نَصِيبُهُمْ ﴾ (النساء : ٣٣) . وعقد الأيمان في هذه الآية ، وبعد ذلك عقد المعاهدة والأمان في قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ ﴾ (النساء : ٩٠) . وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ فِدْيَةٌ ﴾ (النساء : ٩٢) .

والضمنى : عقد الوصية ، والوديعة ، والوكالة ، والعارية ، والإجارة ، وغير ذلك من الداخل في عموم قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (النساء : ٥٨) ، فناسب أن يعقب بسورة مفتوحة بالأمر بالوفاء بالعقود ، فكانه قيل : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ « ١ » التى فرغ من ذكرها في السورة التى تمت ، فكان ذلك غاية في التلاحم والتناسب والارتباط .

ووجه آخر في تقديم سورة النساء ، وتأخير سورة المائدة ، وهو : أن تلك أولها ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ (النساء : ١) ، وفيها الخطاب بذلك في مواضع ، وهو أشبه بخطاب [الكفار وتنزيل] ^(١) المكى ، [وهذه أولها : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ « ١ » وفيها الخطاب بذلك في مواضع ، وهو أشبه بخطاب المدنى] ^(٢) وتقديم العام ^(٣) وشبه المكى أنسب .

ثم إن هاتين السورتين في التلازم ^(٤) والاتحاد نظير البقرة وآل عمران ، فتلكما في تقرير الأصول ، من الوجدانية ، والكتاب ،

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) يريد بالعام : الخطاب بياأها الناس ، فهو أعم من ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أو ﴿ يَتَأَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ « ١٥ » .

(٤) في المطبوعة : « التقديم » ، والمثبت من (ظ) .

والنبوة ، وهاتان في تقرير الفروع الحكيمة ^(١) .

وقد ختمت المائدة بصفة القدرة ، كما افتتحت النساء بذلك ^(٢) .

وافتتحت النساء ببدء الخلق ، وختمت المائدة بالمتهى من البعث والجزاء ^(٣) ، فكأنهما سورة واحدة ، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المتهى .

ولما وقع في سورة النساء : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (النساء : ١٠٥) الآيات ، وكانت ^(٤) نازلة في قصة سارق سرق درعاً ^(٥) ، فصل في سورة المائدة أحكام السراق والخائنين .

ولما ذكر في سورة النساء أنه أنزل إليك الكتاب لتحكم بين الناس ، ذكر في سورة المائدة آيات في الحكم بما أنزل الله حتى بين الكفار ، وكرر قوله : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ « ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ » .

فانظر إلى هذه السور الأربع المدنيات ، وحسن ترتيبها ، وتلاحمها ، وتناسقها ، وتلازمها .

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٦٧/٢ ، ٦٨ ، ٨٨) وما بعدها .
(٢) ختام المائدة قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ « ١٢٠ » وأول النساء : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُؤا رِبَكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ﴾ (النساء : ١) الآية ، وهو دليل القدرة .

(٣) بدء الخلق في أول النساء قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ﴾ (النساء : ١) الآية ، والمتهى في ختام المائدة قوله : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ « ١١٩ » الآية .

(٤) في المطبوعة : « فكانت » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) قصة الدرع أخرجه ابن كثير في التفسير (٣٥٨/٢ ، ٣٥٩) ، وعزاها إلى ابن مردويه ، من طريق عطية العوفي ، ورواه الترمذى في حديث طويل فيه سرقة طعام وسلاح (٣٩٥/٨ - ٣٩٩) بتحفة الأحوذى ، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٣٨٥/٤ - ٣٨٨) وانظر إرشاد الرحمن في التشابه والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وتجويد القرآن للأجهورى ورقة : ١٣٦ أ ، ب لزيادة التفاصيل .

وقد افتتحت البقرة التى هى أول ما نزل فى المدينة^(١) ، وختمت بالمائدة التى هى آخر ما نزل بها ، كما فى حديث الترمذى^(٢) .

* * *

(١) فى المطبوعة : « بالمدينة » ، والمثبت من (ظ) .
(٢) أخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما (٤٣٦ / ٨ ، ٤٣٧) :
(آخر سورة نزلت المائدة والفتح ، وقال المباركفورى : رواه الشيخان عن البراء آخر آية
نزلت ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ (النساء : ١٧٦) وآخر سورة نزلت براءة ، ورد
البيهقى هذا التعارض بأن كل واحد أجاب بما عنده ، وقال الباقلانى : ليس فى هذه
الأقوال شىء مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وكل واحد قال بضرب اجتهاد (تحفة
الأحوذى ٤٣٦ / ٨ ، ٤٣٧) ، وانظر (نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص ١٣٥) .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

قال بعضهم : مناسبة هذه السورة لآخر المائدة : أنها افتتحت بالحمد ، وتلك ختمت بفصل القضاء ، وهما متلازمان كما قال : ﴿ وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الزمر : ٧٥) .

و [أقول] ^(١) قد ظهر لى بفضل الله مع ما قدمت الإشارة إليه فى آية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ ^(٢) . أنه لما ذكر فى آخر المائدة : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ (المائدة : ١٢٠) على سبيل الإجمال ، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله .

فبدأ بذكر : أنه خلق السموات والأرض ، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه قوله : ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ فى آخر المائدة ، وضمّن قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [أول الأنعام] أن له ملك جميع المحامد ، وهو من بسط [جميع] ^(٣) : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ [فى آخر المائدة] .

ثم ذكر : أنه خلق النوع الإنسانى ، وقضى له أجلاً مسمى ، وجعل له أجلاً آخر للبعث ، وأنه منشئ القرون قرناً بعد قرناً ، ثم قال : ﴿ قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾ « ١٢ » ، فأثبت له ملك جميع المنظورات ثم قال : ﴿ وَلَهُ مَّا سَكَنَ فِي الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ « ١٣ » ، فأثبت له ملك جميع المظروفات فى ^(٤) الزمان ، ثم ذكر أنه خلق سائر

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(١) سورة آل عمران : ١٤ .

(٣) ما بين المعقوفين من (ظ) .

(٤) فى المطبوعة : « لظرفى » ، والمثبت من (ظ) .

الحيوان ، من الدواب والطيور ، ثم خلق النوم واليقظة ، والموت والحياة ، ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن من النيرين ، والنجوم ، وفلق الإصباح ، وخلق الحب والنوى ، وإنزال الماء ، وإخراج النبات والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات ، والأنعام ، ومنها حمولة وفرش ، وكل ذلك تفصيل للملكة ما فيهن ، وهذه مناسبة جليلة^(١) .

و^(٢) لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك ، أكثر فيها من ذكر الرب الذى هو بمعنى المالك والخالق والمنشئ ، واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنسانى والملكوتى ، والملكى والشيطانى ، والحيوانى والنباتى ، وما تضمنته من الوصايا ، فكلها متعلقة بالمعاش والقوام الدنيوى^(٣) ، ثم أشار إلى أشراط الساعة [والبعث]^(٤) .

فقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها ، وما يتعلق بها ، وما يرجع إليها ، فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المكية بها^(٥) ، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها .

وهى فى جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير سورة البقرة فى جمعها [الأصول و]^(٦) العلوم والمصالح الدينية ، وما ذكر فيها من

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١١٨/٢) .

(٢) فى المطبوعة : « ثم » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) فى المطبوعة : « متعلق بالقوام والمعاش » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) وانظر مصاعد النظر (١١٨/٢ ، ١١٩) .

(٥) الأنعام مكية وقد نقل السيوطى ذلك عن ابن الضريس فى فضائل القرآن من طريق محمد بن عبد الله الرازى إلى ابن عباس رضى الله عنهما ، الإتيان (٤٢/١) .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

العبادات المحضة ، فعلى وجه الاختصار ^(١) والإيماء ، كنظير ما وقع في البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه ، فإنه على وجه الإيجاز ^(٢) والإشارة : **فإن قلت : فلم لا أفتح القرآن بهذه السورة ، مقدمة على سورة البقرة ؛ لأن بدء الخلق سابق ^(٣) على الأحكام والتعبادات ؟!**

قلت : للإشارة إلى أن مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح المعاش والدنيا ، ولأن ^(٤) المقصود [من الخلق] ^(٥) إنما هو العبادة ، فقدم ما هو الأهم في نظر الشرع ^(٦) ؛ ولأن علم بدء الخلق كالفضلة ، وعلم ^(٧) الأحكام والتكاليف متعين على كل واحد ، فلذلك لا ينبغي النظر في علم بدء الخلق وما جرى مجراه من التواريخ إلا بعد النظر في علم الأحكام وإتقانه .

ثم ظهر لي بحمد الله وجه آخر ، أتقن مما تقدم ، وهو : أنه لما ذكر في سورة المائدة : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا ﴾ (المائدة : ٨٧) إلى آخره [ثم ذكر بعده : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (المائدة : ١٠٣) إلى آخره] ^(٨) فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء

(١) في المطبوعة : « سبيل الإيجاز » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) في المطبوعة : « سبيل الاختصار » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) في المطبوعة : « مقدم » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) في المطبوعة : « و » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة .

(٦) ولهذا جاء في البقرة : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ (البقرة : ٢١) وليس في القرآن غيره بلفظه ، قال الكرماني : العبادة في الآية : التوحيد ، وهو أول ما يلزم العبد من المعارف ، فكان هذا أول خطاب خاطب به العباد في القرآن ، ثم ذكر سائر المعارف ، وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات (أسرار التكرار في القرآن) (٢٢) .

(٧) في المطبوعة : « وعلوم » ، والمثبت من (ظ) .

(٨) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

مما رزقهم الله افتراء عليه ، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئاً مما أحل الله ، فيشابهوا بذلك الكفار في صنيعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز ، ساق هذه السورة لبيان ما حرمه الكفار في صنيعهم ، فأتى به على وجه الأبين والنمط الأكمل ، ثم جادلهم فيه ، وأقام الدلائل على بطلانه ، وعارضهم وناقضهم ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة ^(١) فكانت هذه السورة شرحاً لما تضمنته المائدة من ذلك على سبيل الإجمال ، وتفصيلاً وبسطاً ، وإتماماً وإطناباً .

وافتحت بذكر الخلق والملك ^(٢) ؛ لأن الخالق والمالك هو الذى له التصرف فى ملكه ، ومخلوقاته إباحة ومنعاً ، وتحريمًا وتحليلًا ، فيجب ألا يتعدى عليه بالتصرف فى ملكه .

وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال قوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وبالبقرة ^(٣) من حيث شرحها لإجمال قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (البقرة : ٢١) ، وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة : ٢٩) ، وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله : ﴿ وَاللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ وَالْأَسَدُ وَالْحَرْثُ ﴾ (آل عمران : ١٤) ، وقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (آل عمران : ١٨٥) . الآية .

وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق ، والتقبيح لما حرموه على

(١) وهذا البيان الكامل فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ إلى ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ « ١٣٦ - ١٣٩ » .

(٢) وذلك قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ إلى ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ « ١ - ٣ » .

(٣) فى المطبوعة : « وللبقرة » ، والمثبت من (ظ) .

أزواجهم ، وقتل البنات بالوآد^(١) .

وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها^(٢) .

وفي افتتاح السور المكية بها وجهان آخران من المناسبة .

الأول : افتتاحها بالحمد .

والثاني : مشابهتها للبقرة ، المفتوح بها السور المدنية ، من حيث أن كلا منهما نزل مشيعاً . ففي حديث أحمد : « البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً »^(٣) ، وروى الطبراني وغيره من طرق : « أن الأنعام شيعها سبعون ألف ملك » ، وفي رواية : « خمسمائة ملك »^(٤) .

ووجه آخر ، وهو : أن كل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد . [فأول القرآن سورة ﴿ الْحَمْدُ ﴾]^(٥) ، وهذه للربع الثاني ، والكهف للربع الثالث ، وسبأ وفاطر للربع الرابع .

(١) سبق ما يدل على بدء الخلق ، وما حرموه على أزواجهم ، أما تفسيح قتل البنات بالوآد فجاء عقبه في قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ « ١٤٠ » .

(٢) الأطعمة ذكرت هنا مفصلة من قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا إِلَّا أَنْتُمْ وَإِنْ أَظُنُّوْا إِلَّا تَحْرُصُونَ ﴾ « ١٤١ - ١٤٨ » .

(٣) أخرجه أحمد في « المسند » (٢٦/٥) عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، وأخرج أوله الترمذي (١٨١/٨) بتحفة الأحوذى ، والدارمي في فضائل القرآن عن ابن مسعود رضي الله عنه (٤٤٧/٢) ونزول الملائكة معها أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١١/٦) وعزاه للطبراني .

(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عمر رضي الله عنهما (١٩/٧ ، ٢٠) وفيه (أنزلت جملة واحدة) وفيه (لهم زجل بالتسبيح والتحميد) وعزاه للطبراني وقال : فيه يوسف الصفار ، وهو ضعيف ، وقال ابن الجوزي : متروك (العلل المنتاهية من اسمه يوسف) ونقل السيوطي عن ابن الصلاح في فتاواه رواية تخالف ذلك أنها لم تنزل جملة ، بل نزلت منها آيات بالمدينة ، قيل : ثلاث ، وقيل : غير ذلك . (الإتقان : ١٣٧/١) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

وجميع هذه الوجوه التى استنبطتها من المناسبات بالنسبة إلى أسرار القرآن^(١) كنقطة من^(٢) بحر .

ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق ، ذكر فيها ما وقع عند بدء الخلق ، وهو قوله : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ « ١٢ » ، ففى الصحيح : « لما فرغ الله من الخلق ، وقضى القضية ، كتب كتاباً عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى »^(٣) .

* * *

(١) فى المطبوعة : « للقرآن » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) فى المطبوعة : « عن » والمثبت من (ظ) .

(٣) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (١٢٩ / ٤) وفيه (كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش) .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

أقول : مناسبة وضع هذه السورة عقب سورة الأنعام فيما ألهمني الله سبحانه : أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق ، وقال فيها : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ (الأنعام : ٢) ، وقال في بيان القرون : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ (الأنعام : ٦) ، وأشار فيها إلى ذكر المرسلين ، وتعداد كثير منهم ، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال ، لا التفصيل ، ذكرت هذه السورة عقبها ، لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها .

فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط ، بحيث لم تبسط في سورة كما بسطت فيها ^(١) ، وذلك تفصيل إجمال قوله : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ (الأنعام : ٢) ، ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم ، وكيفية إهلاكهم ^(٢) تفصيلاً تاماً شافياً مستوعباً ، لم يقع نظيره في سورة غيرها ^(٣) ، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسولهم ، فكانت هذه السورة شرحاً لتلك الآيات الثلاث .

وأيضاً ، فذلك تفصيل قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ (الأنعام : ٦) ، ولهذا صدرت هذه السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض خليفة ^(٤) . وقال في قصة عاد : ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ « ٦٩ »

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ إلى ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ « ١١ - ٢٥ » .

(٢) في (ط) : « وكيف هلاكهم » .

(٣) وذلك من قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ إلى ﴿ فَأَنْصَبِ الْأَقْصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ « ٥٩ - ١٧٦ » .

(٤) وذلك في الآية رقم (١١) إلى آخر الآية رقم (٢٥) .

وفي قصة ثمود : ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ « ٧٤ » .

وأيضاً فقد قال في الأنعام : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾
(الأنعام : ٥٤) وهو موجز ، وبسطه هنا بقوله : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ « ١٥٦ » إلى آخره فبيّن من كتبها لهم .

وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأنعام فهو : أنه قد تقدم هناك : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) ، وقوله : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام : ١٥٥) ، فافتتح هذه السورة أيضاً [بالأمر] ^(١) باتباع الكتاب في قوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ إلى [قوله] ^(١) ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ « ٣ ، ٢ » .

وأيضاً لما تقدم في الأنعام : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (الأنعام : ١٥٩) ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴾ (الأنعام : ١٦٤) . قال في مفتتح هذه السورة : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ ٦ ﴾ (١) . ذلك شرح التنبئة المذكورة .

وأيضاً فلما قال في الأنعام : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (الأنعام : ١٦٠) الآية . وذلك لا يظهر إلا في الميزان ، افتتح هذه السورة بذكر الوزن ، فقال : ﴿ وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ « ٨ » . ثم ذكر من ثقلت موازينه ، وهو من زادت حسناته على سيئاته ، ثم من خفت موازينه ، وهو من زادت سيئاته على حسناته ، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف ، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ^(٢) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من « ظ » .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/ ١٣٠ - ١٣١) .

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

اعلم أن وضع هذه السورة وبراءة^(١) ليس بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ، كما هو الراجح في سائر السور ، بل اجتهد من عثمان رضى الله عنه .

وقد كان يظهر في بادئ الرأى : أن المناسب إيلاء الأعراف بيونس وهود ، لاشتراك كل [منهما]^(٢) في اشتمالها على قصص الأنبياء ، وأنها مكية النزول ، خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع الطوال ، وعدوا السابعة يونس ، وكانت تُسمى بذلك كما أخرجه البيهقى في الدلائل^(٣) . ففى فصلها من الأعراف بسورتين هما الأنفال وبراءة فصل للنظير من^(٤) سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الأنفال ، بالنسبة إلى الأعراف وبراءة .

وقد استشكل ذلك قديماً حبر الأم ابن عباس ، فأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى^(٥) ،

(١) فى المطبوعة : « وبراءة هنا » خطأ .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) دلائل النبوة ، للبيهقى (١٥٢/٧ ، ١٥٣) والسبع الطوال كما أخرج النسائى (١١٤/١) عن ابن عباس رضى الله عنهما : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، قال الراوى : وذكر السابعة فنسيتها ، وأورد السيوطى نقلاً عن ابن أبى حاتم وغيره عن سعيد بن جبير : أن السابعة يونس (الإتقان : ٢٢٠/١) .

(٤) فى المطبوعة : « عن » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) المثانى : إما أنها من الثناء ، أو فيها الثناء والدعاء ، أو لأنها تتنى بغيرها (الإتقان : ١٩٠/١) ، وقيل : لأنها ثانية للمئين ، تالية لها ، وقيل : لتثنية الأمثال فيها بالعبر ، حكاه السيوطى عن النكزراوى (الإتقان : ٢٢٠/١) .

وإلى براءة وهى من المثين^(١) ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل [بالمدينة]^(٢) ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم^(٣) ، ووضعتها فى السبع الطوال^(٤) .

فانظر إلى ابن عباس رضى الله عنهما ، كيف استشكل على عثمان رضى الله عنه أمرين : وضع الأنفال وهى قصيرة مع السور الطويلة ووضعتها هى وبراءة فى أثناء السبع الطوال ، مفصلاً بهما بين السادسة والسابعة ، وانظر كيف أجاب عثمان رضى الله عنه أولاً بأنه لم يكن

(١) المثين : ما زادت آياتها على المائة أو قاربتها ، وهى ما وليت الطوال (الإتقان : ٢٢٠/١) .
 (٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ويؤيده ما فى المصادر ، وانظر : دلائل النبوة ، لليهقى (١٥٣/٧) ، والمصاحف ، لابن أبى داود ٣١ - ٣٢ .

(٣) قال الباقلانى : إنما لم تكتب البسملة أول براءة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلم من بعده أن كاتبى فواتح السور لم يكتبوها برأىهم وإنما اتبعوا ما سن وشرع ، وإلا فلا فرق بين براءة وغيرها لو كان من طريق الرأى ، وأيضاً فإن براءة نزلت بالسيف وبعض العهود ، وفى البسملة رافة ورحمة وأمان ، فتركت لأجل ذلك (نكت الانتصار لنقل القرآن : ٧٧ ، ٧٨) .
 (٤) أخرجه أحمد فى المسند (٥٧/١) ، وأبو داود فى الصلاة (٢٠٨/١) ، والترمذى فى التفسير (٨٧٧/٤٧٨) ، والحاكم فى المستدرک (٣٣٠/٢) ، وانظر الدر المنثور (٢٠٧/٢) ، ومساعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٤٤٣/١) وما بعدها ، والانتصار للقرآن ، للباقلانى (١٦٨/١) وما بعدها ، وهذا الحديث يدور إسناداً فى جُلّ رواياته على يزيد الفارسى الذى يذكره البخارى فى الضعفاء ، وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - فى تعليق عليه بالمسند : لا أصل له .

عنده في ذلك توقيف ، فإنه استند إلى اجتهاد ، وأنه قرن بين الأنفال وبراءة لكونها شبيهة بقصتها في اشتغال كل منهما على [الأمر]^(١) القتال ، ونبذ العهود ، وهذا وجه بيّن المناسبة جليّ ، فرضى الله عن الصحابة ، ما أدق أفهامهم ! وأجزل آراءهم ! وأعظم أحلامهم^(٢) ! وأقول : يتم بيان مقصد عثمان رضى الله عنه في ذلك بأمر فتح الله بها :

الأول : أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها ، لكونها مشتملة على البسمة ، فقدمها لتكون كقطعة^(٣) منها ، وتكون براءة بخلوها منها كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف : إن الأنفال وبراءة سورة واحدة ، لا سورتان^(٤) .

الثاني : أنه وضع براءة هنا لمناسبة الطوال ، فإنه ليس في القرآن بعد الأعراف أنسب ليونس طولاً منها^(٥) ، وذلك كاف في المناسبة .

الثالث : أنه خلّل بالسورتين [الأنفال وبراءة] أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الأول ، للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض قبل أن يبين محلها ، فوضعا [هنا]^(٦) كالموضع المستعار بين السبع الطوال ، بخلاف ما لو وضعتا بعد السبع الطوال ، فإنه كان يوهم أن ذلك محلها

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) في (ظ) : « أخلاقهم » .

(٣) في المطبوعة : « لقطة » والمثبت من (ظ) .

(٤) أخرجه أبو الشيخ عن أبي روق ، وابن أبي حاتم عن سفيان ، وابن أشته عن ابن لهيعة (الإتيان : ٢٢٥ / ١) .

(٥) في (ظ) : « وأنه ليس في القرآن بعد الست السابقة سورة أطول منها » .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

بتوقيف ، وترتيب السبع الطوال يرشد إلى دفع هذا الوهم^(١) .
فانظر إلى هذه الدقيقة التى فتح الله بها ، ولا يغوص عليها إلا
غواص .

الرابع : أنه لو أخرهما وقدم يونس ، وأتى بعد براءة يهود ، كما فى
مصحف أبى بن كعب ، لمراعاة مناسبة السبع الطوال ، وإيلاء بعضها
بعضاً ، لفات مع ما أشرنا إليه أمر آخر أكد فى المناسبة ، فإن الأولى
بسورة يونس أن تولى بالسور الخمس التى بعدها ، لما اشتركت فيه من
الاشتغال على القصص ، ومن الافتتاح بـ ﴿الرَّ﴾^(٢) ، وبذكر الكتاب ،
ومن كونها مَكِّيَّات ، ومن تناسب . ما عدا الحجر فى المقدار ، وبالتسمية
باسم نبي ، والرعد اسم^(٣) ملك ، وهو مناسب لأسماء الأنبياء .

فهذه ستة وجوه فى مناسبة الاتصال بين يونس وما بعدها ، وهى
أكد من ذلك الوجه الواحد^(٤) فى تقديم يونس بعد الأعراف .

ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل ، مع كونها
أقصر منها ، ولو أخرت براءة عن هذه السور الست [لبعدت]^(٥)
المناسبة جداً لطولها بعد عدة^(٦) سور أقصر منها بخلاف وضع سورة

(١) أى : وهم أن يكون وضعها بين السبع الطوال بتوقيف ، وقد جاء ترتيب السبع الطوال
متواليات ، وانظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/٤٤٣) .

(٢) فى المطبوعة : « بالذكر » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٣) أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما (٨/١٤٥) أن اليهود قالوا للنبي
صلّى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الرعد ، فقال : « ملك من الملائكة موكل بالسحاب » ، وذكر
السيوطى فى الإتقان (٤/٧٩) : أن ابن أبى حاتم أخرجه عن عكرمة ، وأن مجاهد سئل عن
الرعد فقال : ملك ، ألم تر أن الله يقول : ﴿ وَنَسِخَ الرَّعْدَ بِحَمَلِهِ ﴾ (الرعد : ١٣) .

(٤) فى المطبوعة : « السابق » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) فى المطبوعة : « عشر » ، والمثبت من (ظ) .

النحل بعد الحجر ، فإنها ليست كبراءة في الطول .

ويشهد لمراعاة الفواتح في مناسبة الوضع ما ذكرنا من تقديم الحجر على النحل لمناسبة ذوات ﴿الرَّ﴾ قبلها ، وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء وإن كانت أقصر منها لمناسبة البقرة في ^(١) الافتتاح بـ ﴿الْمَ﴾ وتوالى الطواسين والحواميم ، وتوالى العنكبوت والروم ولقمان ^(٢) والسجدة ، لافتتاح كل بـ ﴿الْمَ﴾ ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التي هي أطول منها .
هذا ما فتح الله به .

وأما ابن مسعود فقدم في مصحفه البقرة على النساء ، وآل عمران ، والأعراف ، والأنعام ، والمائدة ، ويونس ، فراعى [السبع] ^(٣) الطوال ، وقدم الأطول فالأطول ، ثم ثنى بالمتين ، فقدم براءة ، ثم النحل ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الكهف ، وهكذا الأطول فالأطول ، وذكر الأنفال بعد النور ^(٤) .

ووجه مناسبتها لها : أن كلاً منهما مدنية ، ومشملة على أحكام ، وأن في النور ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (النور : ٥٥) الآية . وفي الأنفال : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ﴾ «٢٦» الآية . ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة ، فإن الأولى مشتملة على الوعد بما حصل ، وذكر به في الثانية ، فتأمل .

(١) في المطبوعة : «مع» ، والمثبت من (ظ) .

(٢) في المطبوعة : «والقمر» خطأ ، والمثبت من (ظ) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) انظر : الإتيان (٢٢٤/١) نقلاً عن ابن أشتة في المصاحف من رواية جرير بن عبد الحميد ، وانظر المصاحف ، لابن أبي داود (٣٥) .

سُورَةُ بَرَاءَةِ

أقول : قد عرف وجه مناسبتها ، ونزيد هنا أن صدرها ^(١) تفصيل لإجمال قوله في الأنفال : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْيُذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ (الأنفال : ٥٨) ، وآيات الأمر بالقتال متصلة بقوله هناك : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال : ٦٠) الآية . ولذا قال هنا في قصة المنافقين : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُمْ عُدَّةً ﴾ « ٤٦ » .

ثم بين السورتين تناسب من وجه آخر ، وهو : أنه سبحانه في الأنفال تولى قسمة الغنائم ، وجعل خمسها خمسة أخماس ^(٢) ، وفي براءة تولى قسمة الصدقات ، وجعلها لثمانية أصناف ^(٣) .

* * *

-
- (١) صدر التوبة : ﴿ وَأَذِّنْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ إلى ﴿ فَإِذَا اسْتَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ (التوبة : ٣ - ٥) .
- (٢) وذلك قوله : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (الأنفال : ٤١) الآية .
- (٣) وذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَدَرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « ٦٠ » .

سُورَةُ يُونُسَ

أقول : قد عرف وجه مناسبتها فيما تقدم في الأنفال ^(١) ونزيد هنا :
 أن مطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف ، فإنه ^(٢) سبحانه قال فيها :
 ﴿ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ « ٢ » فقدم الإنذار وعممه ، وآخر
 البشارة وخصصها ، وقال تعالى في مطلع الأعراف : ﴿ لِنُنْذِرَ بِهِ وَذَكَرَى
 لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف : ٢) فخص الذكر وآخرها ، وقدم الإنذار ،
 وحذف مفعوله ليُعم .

وقال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
 اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ « ٣ » ، وقال في أوائل الأعراف مثل ذلك ^(٣) .

وقال هنا : ﴿ يَذُرُّ الْأَمْثِرُ ﴾ « ٣ » . وقال هناك : ﴿ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ
 أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

وأيضاً فقد ذكرت قصة فرعون وقومه في الأعراف ، واختصر
 ذكر ^(٤) إغراقهم ، وبسط ^(٥) في هذه السورة أبلغ بسط ^(٦) .

فهى شارحة لما أجمل في سورة الأعراف منه .

(١) جملة : « في الأنفال » ساقطة في (ظ) .

(٢) في المطبوعة : : « وإنه » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) وذلك في قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
 الْعَرْشِ يُغْشَى أَلْيَدُ النَّهَارِ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

(٤) في المطبوعة : « فاختصر » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) في المطبوعة : « عليهم وبسطه » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) في عذاب فرعون قال تعالى في الأعراف : ﴿ فَانْقَنَاءٌ مِنْهُمْ فَأَعْرِقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف : ١٣٦) ، وقال في يونس : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ
 بَغْيًا وَعَدُوا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ ﴾ إلى ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِنُكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ
 ءَايَةً ﴾ « ٩٠ - ٩٢ » .

سُورَةُ هُودٍ

أقول : وجه وضعها بعد سورة يونس زيادة على الأوجه الستة السابقة : أن سورة يونس ذكر فيها قصة نوح مختصرة جدًا ، جملة ^(١) ، فشرحت في هذه السورة وبسطت ما ^(٢) لم يبسطه في غيرها من السور ^(٣) ، ولا في سورة الأعراف على طولها ، ولا في سورة ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ (نوح : ١) التي أفردت لقصته .

فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في سورة يونس [توفية بالقاعدة ، ثم إن مطلعها شديدًا الارتباط بمقطع سورة يونس] ^(٤) ، فإن قوله هناك : ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ (يونس : ١٠٩) هو عين قوله هنا : ﴿ كَتَبْتُ أَحْكَمَ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ « ٢ » .

* * *

(١) وذلك من قوله : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ إلى ﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَكِّرِينَ ﴾ « ٧١ - ٧٣ » .

(٢) في المطبوعة : « بما » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) وذلك في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ إلى ﴿ قِيلَ يَنْتَهِ أَهْطِ بِسَلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ « ٢٥ - ٤٨ » وانظر : مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١٦٤ / ٢) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

سُورَةُ يُوسُفَ

أقول : وجه وضعها بعد سورة هود زيادة على الأوجه الستة السابقة : أن قوله في مطلعها : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ « ٣ » مناسب لقوله في مقطع تلك : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود : ١٢٠) .

وأيضاً فلما وقع في سورة هود : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود : ٧١) وقوله : ﴿ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ (هود : ٧٣) . ذكر هنا حال يعقوب مع أولاده ، وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته فكان كالشرح لإجمال ذلك .

وكذلك قال هنا : ﴿ وَيُثَبِّتُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ « ٦ » فكان ذلك كالمقترن بقوله في هود (١) : ﴿ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ (هود : ٧٣) .

وقد روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول : أن يونس نزلت ، ثم هود ، ثم يوسف (٢) ، وهذا وجه آخر من وجوه المناسبة في ترتيب هذه السور الثلاث ، لترتيبها في النزول هكذا .

(١) نظم الدرر (٤/٤) وما بعدها .

(٢) الإتيان (٩٧/١) نقلاً عن محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه .

سُورَةُ الرَّعْدِ

أقول : وجه وضعها بعد سورة يوسف زيادة على ما تقدم بعدما فكرت فيه طائفة من الزمان : أنه سبحانه قال في آخر تلك ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف : ١٠٥) فذكر الآيات السماوية والأرضية مجملة ، ثم فصل^(١) في مطلع هذه السورة بقوله^(٢) ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [تفصيل للآيات السماوية . وقوله : ﴿ ﴾]^(٣) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْآبِلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ وفي الأرضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَعَيْرٌ صِنْوَانٌ يُسْقَى بِمَآءٍ وَاجِدٍ وَنُفُّصِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ ٢ - ٤ ﴾ تفصيل للآيات^(٤) الأرضية .

هذا مع اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب ، ووصفه بالحق ، وافتتاح هذه بمثل ذلك^(٥) ، وهو من تشابه الأطراف .

(١) في (ظ) : « فسرهما » .

(٢) في المطبوعة : « فقلوه » ، والمثبت من (ظ) وهو الأنسب .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) في المطبوعة : « الآيات » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ختام يوسف : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) ، وافتتاح هذه : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ « ١ » .

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

أقول : وجه وضعها بعد سورة الرعد زيادة على ما تقدم بعد إفكارى فيه برهة : أن قوله في مطلعها : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ « ١ » مناسب لقوله : في مقطع تلك : ﴿ وَمَنْ عِنْدُ عَلَمٍ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد : ٤٣) على أن المراد به (من) هو : الله تعالى جل جلاله .

وأيضا ففي الرعد : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ رُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ (الرعد : ٣٢) ، وذلك مجمل في أربعة مواضع : الرسل ، والمستهزئين ، وصفة الاستهزاء ، والأخذ ، وقد فصلت الأربعة في قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ... ﴾ « ٩ - ١٦ » الآيات ^(١) .

(١) المواضع الأربعة المفصلة لما أجمل في سورة الرعد هي : الرسل ، في قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِّن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ « ٩ » الآية ، ونظم الدرر (١١٧/٤) وما بعدها .
والمستهزئون ، وصفة الاستهزاء ، في قوله : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ « ٩ » وقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ « ١٠ » ، وقوله : ﴿ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكَ مِن أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ « ١٣ » والأخذ في قوله تعالى : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٣) وَلَنُصَبِّحَنَّكَ الْأَرْضَ مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ « ١٣ - ١٤ » ونظم الدرر (١٦٥/٤ - ١٦٦) .

سُورَةُ الْحَجَرِ

أقول : تقدمت الأوجه في اقترانها بالسورة السابقة ، وإنما أشرت عنها لقصرها بالنسبة إليها ، وهذا القسم من سور القرآن للمئين ، فناسب تقديم الأطول^(١) ، مع مناسبة ما ختمت به لبراعة الختام وهو قول : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ « ٩٩ » ، فإنه مفسر بالموت^(٢) ، وذلك مقطوع في غاية البراعة .

وقد وقع ذلك في أواخر السور المقترنة ، ففي آخر آل عمران : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) ، وفي آخر الطواسين : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص : ٨٨) ، وفي آخر ذوات (الر) : ﴿ وَأَنْظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴾ (السجدة : ٣٠) وفي آخر الحواميم : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَّغٌ ﴾ (الأحقاف : ٣٥) .

ثم ظهر لي وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم ، فإنه تعالى لما قال هناك في وصف يوم القيامة : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ﴿ ٤٨ ﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿ ٤٩ ﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعَشَّىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿ ٥٠ ﴾ (إبراهيم : ٤٨ - ٥٠) . قال هنا : ﴿ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ « ٢ » فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحيدين قد أخرجوا منها تمنوا أن

(١) في (ظ) تقدم الطولى .

(٢) أخرجه البخارى عن سالم (١٠٢/٦) ، ونفس المعنى أخرجه البخارى في الجنائز ، وأحمد في المسند (٤٣٦/٦) .

لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وذلك وجه حسن في الربط ، مع اختتام آخر تلك بوصف الكتاب ، وافتتاح هذه به ^(١) ، وذلك من تشابه الأطراف ^(٢) .

* * *

(١) ختام إبراهيم : ﴿ هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾ (إبراهيم : ٥٢) ، وافتتاح هذه : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ « ١ » ، فكأنهما متصلتان .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/٢٠٣ ، ٢٠٤) .

سُورَةُ النَّحْلِ

أقول : وجه وضعها بعد سورة الحِجْرِ : أن آخرها شديد الالتئام بأول هذه فإن قوله في آخر تلك : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر : ٩٩) . الذى هو مفسر بالموت ، ظاهر المناسبة لقوله هنا : ﴿أَنْ أَمُرُ اللَّهَ﴾ «١» ، وانظر كيف جاء فى المقدمة بـ ﴿يَأْتِيكَ اليقين﴾ [بلفظ المضارع]^(١) ، وفى المتأخرة بلفظ الماضى ، لأن المستقبل سابق على الماضى ، كما تقرر فى المعقول والعربية^(٢) .

ثم^(٣) ظهر لى أن هذه السورة شديدة الاعتلاق بسورة إبراهيم ، وإنما تأخرت^(٤) عنها لمناسبة الحجر ، فى كونها من ذوات ﴿الر﴾ .

وذلك : أن سورة إبراهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت ، ومن هو مثبت^(٥) وغيره^(٦) ، وذلك أيضا فى هذه بقوله : ﴿الَّذِينَ تَوْفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِ أَنْفُسِهِمْ﴾ «٢٨» الآيات ، فذكر الفتنة ، وما يحصل عندها من الثبات والإضلال ، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب^(٧) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) مراد المؤلف أن المضارع سابق على الماضى فى الكلام والأخبار ، لا فى الزمان ، فقولك الآن يقوم الناس لرب العالمين يوم القيامة سابق فى الخبر ، ولا يجوز أن يقال : قام الناس لرب العالمين يوم القيامة إلا بعد تمام ذلك البعث .

(٣) فى المطبوعة : «و» ، والمثبت من (ظ) .

(٤) فى (ظ) : «أخرت» .

(٥) فى المطبوعة : «ميت» ، والمثبت من (ظ) .

(٦) وذلك فى قوله : ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُعْتَدٍ مِنْ ذُلَّالٍ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (إبراهيم : ١٧) .

(٧) وذلك فى قوله تعالى عن العذاب : ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ «٢٩» ، وفى النعيم : ﴿جَنَّاتٍ عِدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ «٣١» .

ووقع في سورة إبراهيم : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكَرُهُمْ لِيَرْزُؤَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (إبراهيم : ٤٦) ، و [قد] ^(١) قيل : إنها في الجبار الذي أراد أن يصعد السماء بالنسور ^(٢) ، ووقع هنا أيضًا في قوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ « ٢٦ » .

ووقع في سورة إبراهيم ذكر النعم ، وقال عقبها : ﴿ وَإِنْ نَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) ، ووقع هنا ذكر ذلك معقبًا بمثل ذلك .

* * *

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) يروى أنه جوع نسرين ، وأوثق رجل كل منهما في تابوت ، وقعد هو وآخر في التابوت ورفع عصا عليها اللحم ، فطارا يتبعان اللحم حتى غابا في الجو . (تفسير الطبري ٣ / ١٦٠) .

سُورَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

اعلم أن هذه السورة والأربع بعدها من قديم ما أنزل ^(١) أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى بنى إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء : « [هُنَّ] ^(٢) من العتاق الأول ، وهن من تлады ^(٣) » وهذا وجه فى ترتيبها ، وهو اشتراكها فى قدم النزول ، وكونها مكيات ، وكلها ^(٤) مشتملة على القصص .

وقد ظهر لى فى وجه اتصالها بسورة النحل : أنه سبحانه لما قال فى آخر النحل : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (النحل : ١٢٤) فسّر فى هذه [السورة] ^(٥) شريعة أهل السبت وشأنهم ، فذكر فيها جميع ما شرع لهم فى التوراة ، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : « [إن] ^(٦) التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل » ^(٧) ، وذكر عصيانهم وإفسادهم ^(٨) ، وتخريب مسجدهم ، ثم ذكر استفزازهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجهم من المدينة ، ثم ذكر سؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون ، وأخبر أن [فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض ، فأهلك ،

(١) فى (ظ) : « نزل » .

(٢) ما بين المعقوفين من صحيح البخارى ، وكذا فى (ظ) .

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير (١٨٩/٦) عن ابن مسعود .

(٤) فى المطبوعة : « وكونها » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٧) تفسير ابن جرير (٢٤٣/١٧) .

(٨) فى المطبوعة : « وفسادهم » ، والمثبت من (ظ) .

وورث بنو إسرائيل من بعده ، وفي ذلك تعريض بهم ، أنهم كما استفزوا النبي [^(١) صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم ، و [قد] ^(٢) وقع ذلك أيضًا .

ولما كانت هذه السورة مصدرة بقصة تخريب المسجد الأقصى أُسرى بالمصطفى إليه ، تشريفًا له بحلول ركابه الشريف ^(٣) ، فله الحمد على ما ألهم .

* * *

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، والنص في المطبوعة فيه اضطراب .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) وانظر : مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢ / ٢٣٠ - ٢٣١) .

سُورَةُ الْكَهْفِ

قال بعضهم : مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ^(١) ، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد ، نحو : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ^(٢) (الحجر : ٩٨) وسبحان الله وبحمده .

قلت : مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضاً ^(٣) ، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف .

ثم ظهر لى وجه آخر أحسن ^(٤) في الاتصال ، وذلك : أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبی صلی الله عليه وسلم عن ثلاثة أشياء : عن الروح ، وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذی القرنين ^(٥) ، وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر سورة بنی إسرائيل ، فناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخرين ^(٦) .

فإن قلت : هلاً جمعت الثلاثة في سورة واحدة ؟

(١) وسبب آخر ذكره ابن الزمكاني هو : أن سورة الإسراء اشتملت على الإسراء الذي كذب به المشركون ، وكذبوا الرسول صلی الله عليه وسلم من أجله ، وتكذيبه تكذيب لله ، فأتى بسبحان تنزيها لله عما نسب إلى نبيه من الكذب ، وسورة الكهف لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخر الوحي ، نزلت مبينة أن الله لم يقطع نعمته عن رسوله ولا المؤمنين فناسب افتتاحها بالحمد . (الإنتقان : ٣٨٧/٣) .

(٢) أو : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ كما ورد في الحجر : ٩٨ ، وطه : ١٣٠ ، وغافر : ٥٥ ، وق : ٣٩ ، والطور : ٤٨ ، وغير ذلك .

(٣) ختام الإسراء : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَئًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكًا فِي الْمَلِكِ ﴾ (الإسراء : ١١١) الآية .

(٤) في (ظ) : « حسن » .

(٥) انظر تفسير ابن كثير (١٣٧/٥) .

(٦) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/٢٣٠ - ٢٣١) .

قلت : لمّا لم يقع الجواب عن الأول بالبيان ^(١) ، ناسب فصله في سورة .

ثم ظهر لى وجه آخر : وهو أنه لما قال فيها : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء : ٨٥) ، والخطاب لليهود ، واستظهر على ذلك بقصة موسى في بنى إسرائيل مع الخضر ، التى كان سببها ذكر العلم والأعلم ^(٢) ، وما دلت عليه من إحاطة ^(٣) معلومات الله عز وجل التى لا تحصى ، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل لما ذكر من الحكم ^(٤) .

وقد ورد في الحديث أنه لما نزل : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال اليهود : قد أوتينا التوراة ، فيها علم كل شىء فنزل : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّ لَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّ وَلَوْ حِشْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ « ١٠٩ » في هذه السورة ^(٥) فهذا وجه آخر في المناسبة ، وتكون السورة من هذه الجهة جوابًا عن شبهة الخصوم فيما قدر بتلك .

وأيضًا فلما قال هناك : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ حِشْنَا بِكُمْ لَفِيغًا ﴾ (الإسراء : ١٠٤) شرح ذلك هنا وبسطه ، بقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّ جَعَلُهُ دَكَاةً ﴾ إلى ﴿ وَفُتِحَ فِي الْأُصُورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا ﴾ (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴾ « ٩٨ - ١٠٠ » فهذه وجوه عديدة في الاتصال ^(٦) .

(١) لم يقع الجواب بالبيان ، وإنما وقع بإسناد علم الروح إلى الله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء : ٨٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٥٥/١) وفيه (أوتينا علمًا كثيرًا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرًا كثيرًا) .

(٣) في (ظ) : « كثرة » .

(٤) في (ظ) : « في تلك السورة » .

(٥) وفي رواية لابن جرير في التفسير (١٥/١٠٤) فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ﴾ (لقمان : ٢٧) الآية ، وانظر : أسباب النزول ، للنيسابورى (١٧٢) ، والسيوطى (١٧٩) .

(٦) نظم الدرر (٤/٤٤١) وما بعدها .

سُورَةُ مَرْيَمَ

أقول : ظهر لى فى وجه مناسبتها لما قبلها : أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب : قصة أصحاب الكهف ، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب ، وقصة موسى مع الخضر ، وما فيها من الخارقات ، وقصة ذى القرنين ، وهذه السورة فيها أعجوبتان : قصة ولادة يحيى بن زكريا^(١) ، وقصة ولادة عيسى ، فناسب تتاليهما^(٢) .

وأيضًا فقد قيل : إن أصحاب الكهف يبعثون قبل قيام الساعة ، ويحجون مع عيسى ابن مريم حين ينزل^(٣) ، ففى ذكر سورة مريم بعد [ذكر]^(٤) سورة أصحاب الكهف مع ذلك - إن ثبت - ما لا يخفى من المناسبة^(٥) .

وقد قيل أيضًا : إنهم من قوم عيسى ، وإن قصتهم كانت فى الفترة ، فناسب توالى [سورة]^(٥) قصتهم و [سورة]^(٥) قصة نبيهم^(٦) .



(١) ولادة يحيى كانت عجيبة ، لأن أمه كانت قد بلغت سن اليأس ، وأباه قد بلغ من الكبر عتيًا ، فلا ينجب مثلهما أبدًا .

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (٤٤٦/٤) وما بعدها .

(٣) لم نعثر على هذا رأى فيما بين أيدينا من مصادر .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) قال ابن كثير : الظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية ، لأن اليهود أشاروا على قريش بسؤال النبی صلى الله عليه وسلم عنهم ، فدل على أنه محفوظ قبل عيسى . (تفسير ابن كثير : ١٣٧/٥) .

سُورَةُ طه

أقول : رويانا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول : أن طه نزلت بعد سورة مريم ، بعد ذكر سورة أصحاب الكهف ، وذلك وحده كاف في مناسبة الوضع ، مع التأخى بالافتتاح^(١) بالحروف المقطعة .

وظهر لى وجه آخر ، وهو : أنه لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من الأنبياء ، وهم : زكريا ، ويحيى ، وعيسى ، الثلاثة مبسوبة وإبراهيم ، وهى بين البسط والإيجاز ، وموسى ، وهى موجزة بجملته^(٢) أشار إلى بقية النبيين فى الآية الأخيرة إجمالاً^(٣) . وذكر فى هذه السورة شرح قصة موسى ، التى أجملها هناك ، فاستوعبها غاية الاستيعاب ، وبسطها أبلغ بسط^(٤) ، ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم ، الذى وقع [فى مريم]^(٥) مجرد اسمه هناك^(٦) ، ثم أورد فى سورة الأنبياء بقية قصص من لم يذكر فى مريم ، كنوح ، ولوط ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وذى الكفل ، وذى النون ، وأشار إلى قصة من ذكرت قصته

(١) كلمة : « بالافتتاح » ليست فى (ط) .

(٢) وردت قصة موسى فى ثلاث آيات قصار من مريم (٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا ﴾ (مريم : ٥٨) الآية .

(٤) وذلك فى قوله : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ إلى ﴿ ثُمَّ لَنَسْفَعُ فِي آلِيهِ نَسْفَاقًا ﴾ « ٩ - ٩٧ » .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ط) .

(٦) وقع مجرد ذكر اسم آدم فى مريم فى قوله : ﴿ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾ (مريم : ٥٨) ، وذكرت قصته مفصلة فى طه من قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ إلى ﴿ قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ « ١١٦ - ١٢٣ » .

إشارة وجيزة ، كموسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وزكريا ، ومريم ،
لتكون السورتان كالمقابلتين .

وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه ، ولم
تذكر حاله مع أبيه إلا إشارة^(١) كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع
قومه إشارة ومع أبيه مبسوطاً^(٢) .

فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب ، وبديع هذا الترتيب .

* * *

(١) قصة إبراهيم في الأنبياء وردت في قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ (الأنبياء : ٥١) الآية
إلى ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ ﴾ (الأنبياء : ٧٣) ، وكلها في إبراهيم وقومه ، أما عن إبراهيم
وأبيه فأشير إليها في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ (الأنبياء : ٥٢) الآية .

(٢) وردت قصة إبراهيم وأبيه في مريم من قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْتَنِي لِمَ تَتَّبِعُنِي مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا
يُبْصِرُ ﴾ (مريم : ٤٢) إلى ﴿ وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا نَدَعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (مريم : ٤٨) .

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

قدمت ما فيها مستوفى^(١) ، وظهر لي في اتصالها بآخر طه : أنه سبحانه لما قال : ﴿ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا ﴾ (طه : ١٣٥) ، وقال قبله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (طه : ١٢٩) .

قال في مطلع هذه : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ « ١ » إشارة إلى قرب الأجل ، ودنو الأمل المنتظر^(٢) .

وفيه أيضاً مناسبة لقوله هناك : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ (طه : ١٣١) الآية .

فإن قرب الساعة يقتضى الإعراض عن هذه^(٣) الحياة الدنيا ، لدنوها من الزوال والفناء ، ولهذا ورد في الحديث : أنها لما نزلت قيل لبعض الصحابة : هلا سألت النبي صلى الله عليه وسلم عنها ؟ فقال : « نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا »^(٤) .

(١) أى في سورة طه .

(٢) في (ظ) : « المسمى » .

(٣) في (ظ) « زهرة » .

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن عامر بن ربيعة (٣٢٧/٢٥) ، وأخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦١٥/٥) وفيه : عن أبي هريرة رضى الله عنه في قوله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ « ١ » عن أمر الدنيا ، وذكره ابن كثير في تفسيره (١٧٢/٣ - ١٧٣) وكذلك الشوكاني في فتح القدير (٣٩٦/٣) كلهم عن عامر بن ربيعة .

سُورَةُ الْحَجِّ

أقول : وجه اتصالها بسورة الأنبياء : أنه ختمها بوصف الساعة في قوله : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (الأنبياء : ٩٧) ، وافتتح هذه بذلك ، فقال : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ ﴾ (١ ، ٢) .

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

أقول : وجه اتصالها بسورة الحج : أنه لما ختمها بقوله : ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الحج : ٧٧) ، وكان ذلك مجملًا ، فصله في فاتحة هذه السورة ، فذكر خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح ، فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (١ ، ٢) الآيات .
ولما ذكر [في] ^(٢) أول الحج قوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ﴾ (الحج : ٥) الآية . زاده هنا بيانًا [وإطنابًا] ^(٣) في قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ (١٢ ، ١٣) الآيتان . فكل جملة أوجزت هناك في القصة ^(٤) أطنب فيها هنا .

(١) في (ظ) : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

(٢) ، (٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) في المطبوعة : « القصد » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

سُورَةُ النُّورِ

أقول : وجه اتصالها بسورة قد أفلح : أنه لما قال [فيها] ^(١) : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (المؤمنون : ٥) ، ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه ، من الزانية والزاني ، وما اتصل بذلك من شأن القذف ، وقصة الإفك ، والأمر بغض البصر ^(٢) ، وأمر فيها بالنكاح حفظاً للفروج ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ، وحفظ فرجه ، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا ^(٣) .

ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط ، ولا تناسق أبدع من هذا النسق .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) الزانية والزاني في قوله : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ إلى ﴿ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ « ٢ ، ٣ » ، وجاء القذف في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ « ٤ - ١٠ » وهو شامل لأحكام اللعان وقصة الإفك هي التي أرجف بها المنافقون في حق أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها حتى برأها الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآفَاكِ عَصَاةٍ مِّنْكُمْ ﴾ إلى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « ١١ - ١٨ » وجاء غرض البصر في قوله : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ « ٣٠ ، ٣١ » ، وفي (ظ) بعد كلمة : « البصر » ما يل : « الذي هو داعية الزنا ، والاستئذان الذي إنما جعل من أجل النظر .

(٣) جاء الأمر بالنكاح ، والاستعفاف لغير القادر ، وعدم إكراه الفتيات على البغاء في الآيتين « ٣٢ ، ٣٣ » .

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

ظهر لى بفضل الله بعدما أفكرت مدة^(١) : أن نسبة هذه السورة
لسورة النور ، كنسبة سورة الأنعام إلى المائدة .

من حيث أن النور قد ختمت بقوله : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ (النور : ٦٤) كما ختمت المائدة بقوله : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ (المائدة : ١٢٠) .

وكانت جملة النور أخصر من المائدة ، ثم فصلت هذه الجملة في
سورة الفرقان فافتتحت بقوله : ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ إلى قوله :
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ «٢» ، كما افتتحت الأنعام بمثل^(٢)
ذلك^(٣) . وكان قوله عقبه : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ «٣» إلى
آخره ، نظير قوله هناك : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام : ١) .

ثم ذكر في خلال هذه السورة جملة من المخلوقات ، كمدّ الظل ،
والليل ، والنوم ، والنهار ، والرياح ، والماء ، والأنعام ، والأناسي
ومزج البحرين ، والإنسان ، والنسب ، والصّهر ، وخلق السموات
والأرض في ستة أيام ، والاستواء على العرش ، وبروج السماء ،
والسراج ، والقمر ، إلى غير ذلك ، مما هو تفصيل لجملة : ﴿لِلَّهِ مَا فِي

(١) في المطبوعة : «فكرت في هذه» ، والمثبت من (ظ) .

(٢) في (ظ) : «بنظير» .

(٣) افتتاح الأنعام قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾
(الأنعام : ١) الآية .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ (النور : ٦٤) كما فصل آخر المائدة في الأنعام بمثل ذلك (٢) وكان البسط في الأنعام أكثر لطولها .

ثم أشار في هذه السورة إلى القرون المكذبة وإهلاكهم (٣) كما أشار في الأنعام إلى ذلك (٤) ، ثم أوضح (٥) هذه الإشارة في السورة التي تليها وهي الشعراء بالبسط التام ، والتفصيل البالغ (٦) ، كما أوضح تلك الإشارة التي في الأنعام وفصلها في سورة الأعراف التي تليها (٧) .

فكانت هاتان السورتان في المثاني ، نظير تينك السورتين [الأنعام والأعراف] في الطوال ، واتصالهما بآخر النور ، نظير اتصال تلك بآخر المائدة ، المشتملة على فصل القضاء (٨) .

ثم ظهر لي لطيفة أخرى ، وهي : أنه إذا وقعت سورة مكية بعد سورة مدنية ، افتتح أولها بالثناء على الله ، كالأنعام بعد المائدة ،

(١) جميع هذه المعاني جاءت في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَيْكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرِينًا وَقَسَرًا مِّنْ يَّرِينًا ﴾ « ٤٥ - ٦١ » .

(٢) هذا التفصيل جاء في الأنعام مفرقاً في الآيات : (١٣ ، ١٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩) .

(٣) في المطبوعة : « وإهلاكهم » خطأ .

(٤) تفصيل أحوال القرون المكذبة وإهلاكهم في الفرقان في قوله : ﴿ فَقُلْنَا أَذْهَبًا إِلَى الْقَوَارِ الْأَذْيَرِ كَذَّبُوا ﴾ إلى ﴿ وَكُلًّا تَبَرَّأْنَا تَبَرُّنًا تَنْبِيْرًا ﴾ « ٣٦ - ٣٩ » ، وفي الأنعام في قوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ ﴾ (الأنعام : ١١) .

(٥) في المطبوعة : « أفصح عن » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) جاء ذلك في الآيات : « ٦٤ - ١٨٩ » حيث جاء عن قوم كل رسول تكذيبهم إياه ، ووسيلة إهلاكهم .

(٧) تفصيل أحوال القرون المكذبة جاء في الأعراف من قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ إلى ﴿ فَأَوْثَقْنَاكَ هُمُ الْخَافِيُونَ ﴾ (الأعراف : ٥٩ - ١٧٨) .

(٨) آخر المائدة : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ « ١٢٠ » وهو يشتمل على فصل القضاء ضمناً ، وأول الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (الأنعام : ١) الآية .

والإسراء بعد النحل وهذه بعد النور ، وسبأ بعد الأحزاب ، والحديد بعد الواقعة ، وتبارك بعد التحريم^(١) ، لما في ذلك من الإشارة إلى نوع استقلال ، وإلى الانتقال من نوع إلى نوع .

* * *

(١) قول المؤلف : والإسراء بعد النحل ، لا يتفق مع قاعدته ، فكلاهما مكى ، وقوله : والحديد بعد الواقعة عكس قاعدته ، فالواقعة مكية ، والحديد مدنية ، وهناك سور مكية جاءت بعد المدنية وافتتحت بالثناء على القرآن ، كيونس بعد التوبة ، وإبراهيم بعد الرعد ، والنمل بعد الشعراء ، وق بعد الرحمن ، والثناء على القرآن ثناء على الله ضمناً .
وهناك مكيات بعد مدنيات لم تفتتح بالثناء على الله ، كالواقعة بعد الرحمن .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

أقول : وجه اتصالها بسورة الفرقان أنه تعالى لما أشار فيها إلى قصص جملة بقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝ (٣٥) فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا ۝ (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۝ (الفرقان : ٣٥ - ٣٨) ﴾ شرح هذه القصص ، وفصلها أبلغ تفصيل في السورة ^(١) التي تليها ، ولذلك رتب على ترتيب ذكرها في الآيات المذكورة فبدىء بقصة موسى ^(٢) ، ولو رتب على الواقع لأخرت كما في الأعراف .

فانظر إلى هذا السر اللطيف الذي مَنَّ الله بإلهامه .

ولما كان في الآيات المذكورة إشارة إلى قرون بين ذلك كثيرة ^(٣) ، زاد في الشعراء تفصيلاً لذلك قصة قوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ^(٤) .

ولما ختم الفرقان بقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ۝ (الفرقان : ٦٣) ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝ (الفرقان : ٧٢) ﴾

(١) في المطبوعة : « الشعراء » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) بدىء بقصة موسى ، من قوله : ﴿ وَإِذَا نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ۝ (١٠) ﴾ وما بعدها ، ثم نوح في قوله :

﴿ كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝ (١٠٥) ﴾ وما بعدها ، ثم عاد من قوله : ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ۝ (١٢٣) ﴾ وهكذا على ترتيب آيات الفرقان .

(٣) في المطبوعة : « قوله وقرونًا بين ذلك كثيرًا » والمثبت من (ظ) .

(٤) في (ظ) : « وقوم شعيب وقوم لوط » .

ختم هذه السورة بذكر الشعراء الذين هم بخلاف ذلك ، واستثنى منهم من سلك سبيل أولئك ، وبين ما يمدح من الشعر ، و [ما] ^(١) يدخل في القول ^(٢) (سلامًا) ، وما يذم منه ، ويدخل في اللغو ^(٣) .

* * *

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) في المطبوعة : « قوله » والمثبت من (ظ) .

(٣) وذلك من قوله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴾ إلى آخر السورة (٢٢٧) من الشعراء .

سُورَةُ النَّمْلِ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنها كاللتمة لها ، في ذكر بقية القرون ، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان ، وداود ، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في ^(١) الشعراء ^(٢) .

وقد روينا عن ابن عباس ، وجابر بن زيد ، في ترتيب [نزول] ^(٣) السور : أن الشعراء نزلت ثم طس ^(٤) ، ثم القصص وذلك كافٍ في ^(٥) ترتيبها في المصحف هكذا .

وأيضاً فقد وقع فيها : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ «٧» إلى آخره ، وذلك تفصيل قوله في الشعراء ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء : ٢١) .

* * *

(١) في (ظ) : « كما هو » .

(٢) قصة داود وسليمان في قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ إلى ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ « ١٥ - ٤٤ » ، وقصة لوط في قوله : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَنَا تُوتُونَ الْفَجِشَةَ ﴾ إلى ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ « ٥٤ - ٥٨ » .

وقول المؤلف : إن قصة لوط هنا أبسط منها في الشعراء مخالف للواقع ، فهي في الشعراء أطول ، ولكنها ذكرت في النمل مع بيان أقصى ما وصلوا إليه من الانحلال الخلقي والانتكاس العقلي ، إذ عدوا طهارة لوط من الشذوذ الجنسي جريمة يستحق عليها النفي من البلاد ، ولم يرد هذا التعليل في الشعراء ، فلعل البسط في المعاني لا في المقدار .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) في المطبوعة : « أنزلت ، ثم طه » خطأ ، والمثبت من (ظ) .

(٥) في المطبوعة : « ولذلك كان » والمثبت من (ظ) .

سُورَةُ الْقَصَصِ

أقول : ظهر لى بعد الفكرة : أنه سبحانه لما حكى فى الشعراء قول
 فرعون لموسى : ﴿الَمْ تُرَبِّكَ مِنَّا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ مِنَّا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨)
 وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ ﴿ (الشعراء : ١٨ ، ١٩) إلى قول موسى : ﴿فَفَرَرْتُ
 مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء : ٢١) ثم
 حكى ^(١) فى طس النمل قول موسى لأهله : ﴿إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا﴾ (النمل : ٧)
 إلى آخره ، الذى هو فى الوقوع بعد الفرار ، ولما كان [الأمران] ^(٢) على
 سبيل الإشارة والإجمال ، بسط فى هذه السورة ما أوجزه فى السورتين ،
 وفصل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما .

فبدأ بشرح تربية فرعون له ، مصدرًا بسبب ذلك : من علو
 فرعون ، وذبح أبناء بنى إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته فى
 اليم خوفًا عليه من الذبح ، وبسط القصة فى تربيته ، وما وقع فيها إلى
 كبره ، إلى السبب الذى من أجله قتل القبطى ، وهى الفعلة التى فعل ،
 إلى الهم بذلك عليه ، والموجب لفراره إلى مدين ^(٣) ، إلى ما وقع له
 [فيها] ^(٤) مع شعيب ، وتزوجه بابنته ، إلى أن سار بأهله ، وأنس من
 جانب الطور نازًا فقال لأهله : ﴿أَمْكُثُوا إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا﴾ «٢٩» إلى
 ما وقع له فيها من المناجاة لربه ، وبعثه إياه رسولاً ، وما استتبع ذلك ،
 إلى آخر القصة .

(١) فى المطبوعة : «وقال» والمثبت من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) مدين : مدينة قوم شعيب ، وهى تجاه تبوك ، على بحر القلزم ، وبها البئر التى استقى منها
 موسى (عليه السلام) لغنم شعيب . انظر : (مراصد الاطلاع ١٢٤٦/٣) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

فكانت السورة شارحة لما أجمل في السورتين معاً ، على الترتيب ^(١) .
وبذلك عرف وجه الحكمة في تقديم (طس) على هذه ، وتأخيرها
عن الشعراء ، فله الحمد على ما ألهم .

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

أقول : ظهر لى فى وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما أخبر فى أول
السورة السابقة عن فرعون أنه : ﴿ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا
يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ (القصص : ٤)
افتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على
الإيمان ، بعذاب دون ما عذب به قوم فرعون بنى إسرائيل ، تسليّة
لهم ، بما وقع لمن قبلهم ، وحثاً لهم على الصبر ، ولذلك قال هنا :
﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ « ٣ » ، وهذه أيضاً من حكم تأخير
القصص عن ^(٢) (طس) .

وأيضاً : فلما كان فى خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبى صلى
الله عليه وسلم ^(٣) ، وفى خاتمة هذه الإشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله :
﴿ يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ ﴾ « ٥٦ » ناسب تتاليهما .

(١) نظم الدرر (٤٦٢/٥) وما بعدها .

(٢) فى المطبوعة : « على » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَاذِ ﴾ (القصص : ٨٥)
الآية ، والمعنى : لرادك إلى مكة ، كما فى البخارى (١٤٢/٦) أى : كما خرجت منها ،
وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير والضحاك ،
واختاره ابن جرير (تفسير الطبرى : ٨٠/٢٠) .

سُورَةُ الرُّومِ

أقول : ظهر لى فى اتصالها بما قبلها : أنها ختمت بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت : ٦٩) ، وافتتحت ^(١) هذه بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر ، وفرح المؤمنين بذلك ، وأن الدولة لأهل الجهاد فيه ، ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة ^(٢) .

هذا مع تأخيرها بما قبلها فى المطلع ، فإن كلا منهما افتتح بـ ﴿ اَلَمْ ﴾ غير معقب بذكر القرآن ، وهو خلاف القاعدة الخاصة فى المفتتح ^(٣) بالحروف المقطعة ، فإنها كلها عقببت بذكر الكتاب أو وصفه ، إلا هاتين السورتين وسورة القلم ، لنكتة بينتها فى « أسرار التنزيل » ^(٤) .

(١) فى المطبوعة : « افتتحت » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ ٢٠٠ ﴿ فِي أَذَى الْأَرْضِ ﴾ ٢٠١ ، إلى قوله : ﴿ وَيُؤْمِنُ بِفَرَجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٢٠٢ ﴿ يَنْصُرُ اللَّهُ ﴾ ٢٠٣ ، وانظر : نظم الدرر (٥٨٢ / ٦) وما بعدها .

(٣) فى المطبوعة : « بالمفتتح » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) انظر مقدمة المصنف وحاشيتها ، وأشار إليه فى الإتيان (٢٨١ / ١) ، (٣٦٩ / ٣) .

والذى نراه فى سبب عدم افتتاح العنكبوت والروم بالكتاب أو وصفه والله أعلم : أنه لما تكرر الحديث عن الكتاب عقب الحروف المقطعة وأنه من عند الله ، وهدى للمتقين ، وتنزيل من رب العالمين ، كان لابد من ابتلاء المصدقين به حتى ينزل المنافقون عن المؤمنين ويظهر الصادق فى إيمانه من الكاذب ، وهذا بمثابة الاختبار العمل لاستجابة الناس لأمر الكتاب ، ولا سيما وأن حملة تشكيك أثارها الكفار ضد الإيمان ، ولذا قال تعالى فى العنكبوت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ ﴾ (العنكبوت : ١٠ - ١٢) الآية .

أما فى الروم فقد عقببت الحروف المقطعة باختبار ودليل على صدق وعد الكتاب الذى صدق الكتاب بالإخبار عن المستقبل وما يجرى فيه من وعد الروم بالنصر بعد الهزيمة ، وهذا ابتلاء يميز الله به المؤمنين من المنافقين عند هذا الوعد وموقف الفريقين منه ، ودليل على صدق الكتاب وأنه من الله حينما تحقق النصر بالفعل .

سُورَةُ لُقْمَانَ

أقول : ظهر لى فى اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة فى الافتتاح بـ ﴿الْمَرْءُ﴾ أن قوله تعالى هنا : ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣ ، ٤﴾ متعلق بقوله فى آخر سورة الروم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ (الروم : ٥٦) الآية ، فهذا عين إيقانهم بالآخرة ، وهم المحسنون الموقنون بما ذكر^(١) .

وأيضاً ففى كلتا السورتين جملة من الآيات^(٢) وبدء الخلق^(٣) .

وذكر فى الروم : ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (الروم : ١٥) ، وقد فسر

= ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم : ٦) .

أما سورة القلم فكانت ثالثة السور نزولاً بمكة ، وكان الكفار قد أرجفوا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مجنون ، أو به مس من الجن ، فافتضى الأمر تسليته وثبت فؤاده ، وقدم هذه التسلية على الدفاع عن القرآن الذى جاء عقب ذلك فى الآيات ﴿وَلَا تَطْغَى كُلُّ جَلَدٍ مَّهِينٍ﴾ إلى ﴿أَسْطِطِرُّ الْآوَلِينَ﴾ (القلم : ١٠ - ١٥) .

(١) نظم الدرر فى تناسق الآيات والسور (٣/٦) وما بعدها .

(٢) فى المطبوعة : «الأديان» تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٣) ذكرت جملة الأديان فى سورة الروم فى قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم : ٩ ، ١٠) وقوله : ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ (الروم : ٣٢) ، وبدء الخلق فى قوله : ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ (الروم : ٢٠) الآية ، وما بعدها .

وذكرت جملة الأديان فى لقمان فى قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ (لقمان : ٦) الآية ، وقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ (لقمان : ٢٠) وما بعدها ، وبدء الخلق فى قوله : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (لقمان : ١٠) ، وقوله : ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنِينَ وَاحِدَةً﴾ (لقمان : ٢٨) الآية .

بالسمع^(١) ، وفي لقمان : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ «٦»
وقد فسر بالغناء ، وآلات الملاهي^(٢) .

سُورَةُ السَّجْدَةِ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها ، أنها شرحت مفاتيح الغيب
الخمس^(٣) التي ذكرت في خاتمة لقمان .

فقوله هنا : ﴿ثُمَّ يَرْجِعْ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا
تَعُدُّونَ﴾ «٥» ، شرح لقوله هناك : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (لقمان : ٣٤)
ولذلك عقب هنا بقوله : ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ «٦» .

وقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ «٢٧» شرح
قوله^(٤) : ﴿وَيُنَزَّلُ الْغَيْثَ﴾ (لقمان : ٣٤) .

وقوله : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ «٧» الآيات ، شرح لقوله :
﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ﴾ (لقمان : ٣٤) .

وقوله : ﴿يُذِيبُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (السجدة : ٥) و ﴿وَلَوْ
شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ (السجدة : ١٣) ، شرح لقوله : ﴿وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ (لقمان : ٣٤) .

وقوله : ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله : ﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلِكُ

(١) هو قول يحيى بن أبي كثير ، انظر : (تفسير ابن كثير ٣١٣/٦) .

(٢) هو قول ابن مسعود سمعه منه أبو الصهباء البكري (تفسير الطبري ٣٩/٢١) ، وهو قول
ابن عباس وجابر رضى الله عنهم ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ،
والحسن ، وانظر : (صحيح الترمذي : ٥٠٢/٤ ، ٥٠٣ بتحفة الأحوذى) .

(٣) نظم الدرر (٤٢/٦ - ٤٣) .

(٤) في المطبوعة : «لقوله» ، والمثبت من (ظ) .

الْمَوْتِ الَّذِي يُكَلِّ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾ « ١١ » شرح لقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (لقمان : ٣٤) ، فله الحمد على ما ألهم .

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : تشابه مطلع هذه ، ومقطع تلك ، فإن تلك ختمت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ^(١) ، [ومطلع هذه الأمر بتقوى الله ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، فصارت كاللتمة لما ختمت به تلك ، حتى كأنهما سورة واحدة] ^(٢) .

سُورَةُ سَبَأٍ

أقول : ظهر لى وجه اتصالها بما قبلها ، وهو أن تلك لما ختمت بقوله : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (الأحزاب : ٧٣) افتتحت هذه بأن له ما فى السموات وما فى الأرض ^(٣) ، وهذا الوصف لائق بذلك الحكم ، فإن الملك العام ، والقدرة التامة ، يقتضيان ذلك .

وخاتمة سورة ^(٤) الأحزاب : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٧٣) وفاصلة الآية الثانية من مطلع سبأ ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ « ٢ » .

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ (السجدة : ٣٠) .
(٢) فى (ظ) : « وهذه بدأت بأمره بالتقوى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع ما أوحى إليه ، والتوكل عليه » .
(٣) وذلك قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَمَأْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَأْ فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ ﴾ (سبأ : ١) الآية .
(٤) فى (ظ) : « وآخر » .

سُورَةُ فَاطِر

أقول : مناسبة وضعها بعد سبأ ، تأخيهما في الافتتاح بالحمد ، مع تناسبهما في المقدار .

وقال بعضهم : افتتاح سورة فاطر بالحمد مناسب لختام ما قبلها ، من قوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ ﴾ (سبأ : ٥٤) ، كما قال : ﴿ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ٤٥) ، فهو نظير اتصال أول الأنعام بفصل القضاء المختتم به المائدة^(١) .

(١) آخر المائدة : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ (المائدة : ١١٩) ، وأول الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (الأنعام : ١) الآية .

سُورَةُ يَس

أقول : ظهر لي وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما ذكر في سورة فاطر قوله : ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ (فاطر : ٣٧) وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ (فاطر : ٤٢) ، والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ^(١) وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته ، وأنه على صراط مستقيم ، لينذر قومًا ما أنذر آبائهم ، وهذا وجه بين .

وفي فاطر : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ (فاطر : ١٣) ، وفي يس : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴾ (٣٨ ، ٣٩) ، وذلك أبسط وأوضح .

وفي فاطر : ﴿ وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ ﴾ (فاطر : ١٢) ، وفي يس : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ (يس : ٤١ - ٤٣) فزاد القصة بسطًا .

(١) هو قول السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، انظر : تفسير ابن كثير (٥٤٢/٦) .

سُورَةُ الصَّافَاتِ

أقول : هذه السورة بعد (يس) كالأعراف بعد الأنعام ، وكالشعراء بعد الفرقان ، في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم^(١) ، كما أن تينك^(٢) السورتين تفصيل لمثل ذلك كما تقدم .

سُورَةُ ص

أقول : هذه السورة بعد الصافات ، كطس بعد الشعراء ، وكطه والأنبياء بعد مريم ، وكيوسف بعد هود ، في كونها متممة لها بذكر من بقى من الأنبياء ، ممن لم يذكروا فيها ، فإنه سبحانه ذكر في الصافات : نوحًا ، وإبراهيم ، والذبيح ، وموسى ، وهارون ، ولوطًا ، وإلياس ، ويونس ، وذكر هنا : داود ، وسليمان ، وأيوب ، وأشار إلى بقية من ذكر ، فهي بعدها أشبه شيء بالأنبياء وطس ، بعد مريم والشعراء^(٣) .

* * *

(١) وردت الإشارة إلى القرون المكذبة ، وإهلاكهم في يس بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِلَكُنَّا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (يس : ٣١) وجاء ذلك مفصلاً في الصافات في قوله : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (الصافات : ١٢) إلى آخر السورة .

(٢) في المطبوعة : « تينك » تحريف .

(٣) نظم الدرر (٣٥٦/٦) .

سُورَةُ الزُّمَرِ

[أقول] ^(١) : لا يخفى وجه اتصال أولها بآخر (ص) ، حيث قال في (ص) : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (ص : ٨٧) ، ثم قال هنا : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ «١» فكأنه قيل : هذا الذكر تنزيل ، وهذا تلاؤم ^(٢) شديد ، بحيث إنه لو أسقطت ^(٣) البسملة لالتأمت الآيتان ^(٤) كالآية الواحدة .

وقد ذكر الله تعالى في آخر (ص) قصة خلق آدم ^(٥) ، وذكر في صدر هذه قصة خلق زوجه [منه] ^(٦) ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر وفاة النوم والموت ، ثم ذكر القيامة ، والحساب ، والجزاء ، والنار ، والجنة ^(٧) وقال : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ «٧٥» .

فذكر أحوال الخلق ، من المبدأ إلى المعاد ، متصلاً بخلق آدم المذكور في السورة التي قبلها .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) في (ظ) : «تلاحم» .

(٣) في (ظ) : «سقطت» .

(٤) في (ظ) : «لالتأم الكلام» .

(٥) خلق آدم في سورة (ص) قوله : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ إلى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص : ٧١ - ٨٥) .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٧) بدأ ذكر هذه الموضوعات في الزمر في قوله تعالى : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (٦) الآية ، وقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ، وقوله : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ (٤٢) الآية ، وقوله : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (٧١) الآيات ، إلى آخر السورة ، ولذلك لو قدمت الزمر على (ص) لاختل النسق القرآني الذي أحكمه الله تعالى .

سُورَةُ غَافِرٍ

أقول : وجه إيلاء الحواميم السبع ^(١) سورة الزمر : تأخى المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب ، وفي مصحف أبي بن كعب : أول الزمر ﴿حَمَّ﴾ ^(٢) ، وذلك مناسبة جليّة ^(٣) .

ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها في الافتتاح بـ ﴿حَمَّ﴾ ، وبذكر الكتاب بعد حم ، وأنها مكية ، بل ورد في الحديث أنها نزلت جملة ^(٤) [واحدة] ^(٥) .

وفيهما شبه من ترتيب ذوات ﴿الرَّ﴾ الست ^(٦) .

فانظر ثانية الحواميم وهى فصلت ، كيف شابهت ثانية ذوات ﴿الرَّ﴾ هود في تغيير الأسلوب في وصف الكتاب ، وأن في هود : ﴿كَتَبَ أَحْكَمَ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ﴾ (هود : ١) ، وفي فصلت : ﴿كَتَبَ فَصَّلَتْ ءَايَتُهُ﴾ (فصلت : ٣) ، وفي سائر ذوات ﴿الرَّ﴾ ^(٧) ﴿تِلْكَ ءَايَتُ

(١) الحواميم السبع هى : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجنات ، والأحقاف ،

(٢) الإتيان : (٢٢٢/١) نقلاً عن أبى أشته في المصاحف وفي الأصل : أن الزمر أولها حم في مصحف ابن مسعود وأثبتنا ما في الإتيان ، والبرهان للزركشى : (١٣٠/١) .

(٣) لم نعثر على هذه الرواية ولم يذكرها السيوطى في الإتيان ولا الزركشى في البرهان ، ولا مصادر السنة الستة ، ولا مجمع الزوائد .

(٤) في (ظ) جلية .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) ذوات ﴿الرَّ﴾ الست هى : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وأولها : ﴿الرَّ﴾ ، وإبراهيم ، والحجر .

(٧) في (ظ) : «الراءات» ، وكلاهما سائغ .

الْكِتَابِ ﴿^(١)﴾ (الحجر : ١) ، وفي سائر الحواميم : ﴿ نَزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ (غافر : ٢) أو ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ ^(٢) (الدخان : ٢) .

وروينا عن جابر بن زيد ، وابن عباس في ترتيب نزول السور : أن الحواميم نزلت عقب الزمر ، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف : المؤمن ، ثم السجدة ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ، ولم يتخللها نزول غيرها ^(٣) ، وذلك ^(٤) مناسبة جلية واضحة في وضعها هكذا .

ثم ظهر لى لطيفة أخرى ، وهى : أنه في كل ربع من أرباع القرآن توالى سبع سور مفتحة بالحروف المقطعة . فهذه [السور] ^(٥) السبع مصدرة بـ ﴿ حَمَّ ﴾ ، وسبع في الربع الذى قبله [متواليه و] ^(٦) ذوات ﴿ الرَّ ﴾ ^(٧) الست متواليه ، و ﴿ الْقَصَّ ﴾ الأعراف ، فإنها متصلة بيونس على ما تقدمت الإشارة إليه ، وافتتح أول القرآن بسورتين من ذلك ، وأول النصف الثانى بسورتين ^(٨) .

وقال الكرمانى فى «العجائب» ^(٩) : ترتيب الحواميم السبع لما بينها

(١) ولكن فى إبراهيم : ﴿ كَتَبْنَا نُزْلَهُ إِلَيْكَ ﴾ (١) .
(٢) ولكن فى فصلت : ﴿ نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٢) ، وفى الشورى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ ﴾ (٣) .

(٣) الإتيان (٩٧/١) نقلاً عن أبى بكر محمد بن الحارث بن أبيص فى جزئه المشهور .

(٤) فى المطبوعة : « وتلك » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ، (٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٧) فى (ظ) : « الرءاءات » .

(٨) كان حق الكلام (بسبع سور) فنصف القرآن بالآيات فى سورة الشعراء الإتيان (٢٤٣/١) وعليه يكون نصف القرآن مفتتحاً بالشعراء وأولها (طسم) ، والنمل (طس) ، والقصص (طسم) ، والعنكبوت (آلآ) ، والروم (آلآ) ، ولقمان (آلآ) ، والسجدة (آلآ) ، وإذا اعتبرنا النصف المعروف لنا فالسورتان هما : مريم وطه .

(٩) هو كتاب « لباب التفسير وعجائب التأويل » لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى (خط) ، ولم نثر عليه مخطوطاً ولا مطبوعاً ، انظر : (معجم الأدباء ١٩/١٢٥) ، وقد ذكره الكرمانى فى (أسرار التكرار فى القرآن ص ١٨) .

من التشاكل الذى خصت به ، وهو : أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب أو وصفه ، مع تفاوت المقادير فى الطول والقصر ، وتشاكل الكلام فى النظام . انتهى .

قلت : وانظر إلى مناسبة ترتيبها ، فإن مطلع غافر مناسب لمطلع الزمر ، ومطلع فصلت التى هى ثانية الحواميم مناسب لمطلع هود ، التى هى ثانية ذوات ﴿الر﴾^(١) ومطلع الزخرف مؤاخ لمطلع الدخان ، وكذا مطلع الجاثية لمطلع الأحقاف^(٢) .

سُورَةُ الْقِتَالِ

[أقول]^(٣) لا يخفى وجه ارتباط أولها بقوله فى آخر الأحقاف ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف : ٣٥) ، واتصاله وتلاحمه وبحيث أنه لو أسقطت البسملة منه ، لكان متصلًا اتصالاً واحدًا لا تنافر فيه ، كالأية الواحدة ، آخذًا بعضه بعنق بعض^(٤) .

(١) فى (ظ) : «الراءات» .

(٢) مطلع الزمر ﴿تَزِيلُ الْكَتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ، ومطلع غافر ﴿تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ، ومطلع هود ﴿كِتَابٌ أُتِيَتْ بِإِيتَامٍ ثُمَّ فَصَّلَتْ﴾ ، ومطلع فصلت ﴿كِتَابٌ فَصَّلَتْ بِإِيتَامٍ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ، وهكذا جميع المطالع التى ذكرها المؤلف .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) أول القتال : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ﴾ (محمد : ١) ، وسورة القتال مع هذا متممة لموضوع سورة الأحقاف قبلها : فالأحقاف فيها الحديث عن إغراض الكافرين فى مختلف العصور ، وفيها دعوتهم إلى الإيمان بالتى هى أحسن ، وقد استنفذت السورة وسائل الإقناع العقلى ، وأثبتت عتو أهل الكفر وجحودهم ، فكانت سورة القتال بما فيها من جهاد ، وقواعد الحرب ، وتشريعاته متفقة تمامًا مع نسخ وسائل الدعوة السلمية بآية السيف .

سُورَةُ الْفَتْحِ

[أقول] ^(١) لا يخفى وجه حُسن وضعها هنا ، لأن الفتح بمعنى النصر ، مرتب على القتال ، وقد ورد في الحديث : أنها [نزلت] ^(١) مبينة لما يفعل به وبالمؤمنين ، بعد إبهامه في قول تعالى في الأحقاف : ﴿ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ ^(٢) (الأحقاف : ٩) ، فكانت متصلة بسورة الأحقاف من هذه الجملة ^(٣) .

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

[أقول] ^(٤) لا يخفى تأخى هاتين السورتين [الفتح والحجرات] مع ما قبلهما ، لكونهما مدينتين ، ومشملتين على أحكام ، فتلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة ^(٥) ، وتلك حُتِمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا ^(٦) ، وتلك تضمنت تشريفاً له صلى الله عليه وسلم ،

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) هو قول ابن عباس رضى الله عنهما رواه عنه على بن طلحة ، ولذا قال عكرمة والحسن وقتادة : إن آية الأحقاف منسوخة بآية الفتح : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾ (الفتح : ٢) الآية ، قالوا : ولما نزلت قال رجل من المسلمين : فما هو فاعل بنا ؟ فنزل : ﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ (الفتح : ٥) الآية ، انظر : تفسير ابن كثير (٧/ ٢٦٠) .

(٣) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، للبقاعي (٢/ ٤٩٢) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) قتال الكفار في الفتح معروف ؛ لأنها في فتح مكة ، و قتال البغاة في الحجرات جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الحجرات : ٩) الآية .

(٦) ختام الفتح : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح : ٢٩) وافتتاح الحجرات : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِرُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الحجرات : ١) الآية .

خصوصًا مطلعها ، وهذه أيضًا في مطلعها أنواع من التشریف له صَلَّى الله عليه وسلم ^(١) .

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

أقول : لما ختمت (ق) بذكر البعث ، واشتملت على ذكر الجزاء ، والجنة ، والنار ، وغير ذلك من أحوال القيامة ، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ما توعدون من ذلك لصادق ^(٢) ، وإن الدين - وهو الجزاء - لواقع .

ونظير ذلك : افتتاح المرسلات بذلك ، بعد ذكر الوعد والوعيد والجزاء في سورة الإنسان ^(٣) .

سُورَةُ الطُّورِ

أقول : وجه وضعها بعد الذاريات : تشابههما في المطلع والمقطع ، فإن في مطلع كل منهما صفة حال المتقين بقوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ ﴾ (الذاريات : ١٥ ، الطور : ١٧) الآيات ، وفي مقطع كل منهما صفة حال

(١) تشریفه صَلَّى الله عليه وسلم في الفتح في قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتَبِّعْ بِفَضْلِهِ عَلَىكَ ﴾ (الفتح : ٢) الآية ، وتشریفه في مطلع الحجرات : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الحجرات : ١) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ (الحجرات : ٣) الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات : ٤) وانظر : مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣/٥ ، ٦) .

(٢) في (ظ) : « ما توعدون من ذلك صادق » .

(٣) الوعد والوعيد في الإنسان ﴿ إِنَّا أَتَيْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَآغْلَاكًا ﴾ (الإنسان : ٤) وما بعدها ، وأقسم على صحة ذلك في أول المرسلات ﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوْفٍ ﴾ (المرسلات : ٧) .

الكفار ، بقوله في تلك : ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (الذاريات : ٦٠) ، وفي هذه : ﴿ قَالَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ «٤٢» (١) .

سُورَةُ النَّجْمِ

أقول : وجه وضعها بعد الطور : أنها شديدة المناسبة لها ، فإن الطور ختمت بقوله : ﴿ وَإِذْ بَرَئَ النَّجُومُ ﴾ (الطور : ٤٩) ، وافتتحت هذه بقوله : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ «١» .

ووجه آخر : [وهو] (٢) أن الطور ذكر فيها ذرية المؤمنين ، وأنهم تبع لأبائهم (٣) ، وهذه فيها ذكر ذرية اليهود (٤) في قوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ] وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ ﴾ «٣٢» الآية ، فقد أخرج ابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، والواحدى بأسانيدهم عن ثابت ابن الحارث الأنصاري ، قال : كانت اليهود تقول : إذا هلك صبي صغير هو : صديق ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد » ، وأنزل الله عند ذلك ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ الآية [(٥)] .

(١) ومن المناسبة بين الطور والذاريات أنه تعالى ذكر تكذيب الكافرين ، ورد عليهم في إيجاز في الذاريات بقوله : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴾ (الذاريات : ٥٢) وما بعدها ، ثم فصل ذلك في الطور من قوله : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور : ٢٩) إلى آخر السورة (٤٩) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (الطور : ٢١) . (٤) بل فيها ذكر لذرية كل كافر حين استخرج الله ذرية آدم من صلبه وقسمهم فريقين : فريقاً للجنة ، وفريقاً للسعير . انظر : (تفسير ابن كثير : ٤٣٧/٧) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، وانظر الدر المنثور ، للسيوطي (١٢٨/٦) ، وزاد السيوطي بقوله : « وأخرجه الطبراني » ، وانظر أيضاً : أسباب النزول ، للسيوطي وفيه هذا النص (٢٥٨) وكذا أسباب النزول للنيسابوري (٢٢٦) وذكره .

ولما قال هناك في المؤمنين : ﴿ الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الطور : ٢١) أى : ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين ، مع نفعهم بما عمل آبائهم ، قال هنا في صفة الكفار أو بنى الكفار : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (٣٩) خلاف ما ذكر في المؤمنين الصغار .
وهذا وجه بين بديع في المناسبة ، من وادى التضاد .

سُورَةُ الْقَمَرِ

أقول : لا يخفى ما في توالى هاتين السورتين من حسن التناسق [والتناسب] ^(٢) في التسمية ، لما بين النجم والقمر من الملازمة ، ونظيره توالى الشمس والليل والضحى ، وقبلها سورة الفجر ^(٣) .

ووجه آخر وهو : أن هذه السورة بعد النجم كالأعراف بعد الأنعام [وكالشعراء بعد الفرقان] ^(٤) ، وكالصفات بعد يس ، في أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في قوله هناك : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥١) وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ (٥٢) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٣) وَالْمُؤَنَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ (النجم : ٥٠ - ٥٣) ^(٥) .

(١) في (ظ) : « اقتربت » .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) وانظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور : (٣٩/٣) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) جاء تفصيل ذلك على الترتيب ، وزاد عليه في سورة القمر ، من قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴾ (القمر : ٩ ، ٤٢) .

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

أقول : لما قال سبحانه وتعالى في آخر القمر : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌ ﴾ (القمر : ٤٦) ، ثم وصف حال المجرمين في سقر ، وحال المتقين في جنات ونهر ، فصل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل ، على الترتيب الوارد في الإجمال .

فبدأ بوصف مرارة الساعة ، والإشارة إلى إذهابها ^(١) ، ثم وصف النار وأهلها ^(٢) ، والجنة وأهلها ^(٣) ، ولذا قال [﴿ يُعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ « ٤١ » فلم يقل : الكافرون أو نحوه لاتصاله بقوله هناك : ﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ ﴾ (القمر : ٤٧) ثم وصف الجنة وأهلها ، وكذا قال : ^(٤) [﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ « ٤٦ » ، وذلك هو عين التقوى ^(٥) ، ولم يقل : [و ^(٦) لمن آمن وأطاع ، أو نحوه ، لتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل .

وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التي قبلها فله الحمد على ما ألهم وفهم ^(٧) .

-
- (١) في المطبوعة : : « إذهائها » ، تحريف ، والمثبت من (ظ) .
 (٢) وصف النار وأهلها جاء في قوله في سورة الرحمن ﴿ سَفَرُّ لَكُمْ إِلَهُ النَّفْلَانِ ﴾ إلى ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴾ (الرحمن : ٣١ ، ٤٤) .
 (٣) ووصف الجنة وأهلها جاء في قوله : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (الرحمن : ٤٦) إلى آخر السورة .
 (٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
 (٥) التقوى هي : خوف مقام الرب ، وبذلك يتفق التفصيل هنا مع الإجمال في قوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ في سورة القمر : ٥٤ .
 (٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
 (٧) نظم الدرر في تناسق الآيات والسور (٣٧١ / ٧) ، ومساعد النظر (٤٥ / ٣) .

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

أقول : هذه السورة متآخية مع سورة الرحمن في أن كلا منهما في وصف القيامة ، والجنة والنار ، وانظر إلى اتصال قوله هنا : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ « ١ » بقوله هناك : ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ (الرحمن : ٣٧) ، ولهذا اقتصر في الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفي الواقعة على ذكر رج الأرض ^(١) ، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة .

ولهذا عكس في الترتيب ، فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك ، وفي آخر هذه ما في أول تلك ، كما أشرت إليه في سورة آل عمران مع سورة البقرة .

فافتتح [في سورة] ^(٢) الرحمن بذكر القرآن ، ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم ذكر النبات ، ثم خلق الإنسان ، والجنان من مارج من نار ^(٣) ، ثم صفة [يوم] ^(٤) القيامة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة .

وابتدا هذه بذكر القيامة ثم صفة الجنة ، ثم صفة النار ، ثم خلق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النار ، ثم [ذكر] ^(٥) النجوم ، ولم يذكرها في الرحمن ، كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ، ثم ذكر القرآن . فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك ، وكردّ العجز على الصدر .

* * *

(١) وذلك في قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ (الواقعة : ٤) ، وانظر : نظم الدرر (٧/ ٤٠٢) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) في (ظ) : « من نار » .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

سُورَةُ الْحَدِيدِ

قال بعضهم : وجه اتصالها بالواقعة : أنها بدأت ^(١) بذكر التسييح ، وتلك ختمت بالأمر به ^(٢) .

قلت : وتماه : أن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر به ، وكأنه قيل : ﴿ فَسَيَخُ بِأَنفِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة : ٩٦) لأنه ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ « ١ » .

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

أقول : لما كان في مطلع الحديد ذكر صفاته الجليلة ، ومنها : الظاهر والباطن ، وقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ الحديد « ٤ » افتتح هذه بذكر أنه سمع قول المجادلة التي شكت إليه صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها حين نزلت : « سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، إني لفي ناحية البيت لا أعرف ما تقول » ^(٣) .

وذكر بعد ذلك قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ « ٧ » ، وهو تفصيل لإجمال قوله : ^(٤)

(١) في المطبوعة : « قدمت » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) نظم الدرر (٤٣٣ / ٧) ، وفيه تلك العبارة .

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٦٧ / ١) والإمام أحمد في المسند (٤٦ / ٦) ، وأخرجه البخارى بنحوه معلقاً (١٤٤ / ٩) ، وانظر التفسير الصحيح (٤٥٣ / ٤) وابن جرير في التفسير (٦ / ٢٨) .

(٤) في المطبوعة : « لقوله » ، والمثبت من (ظ) .

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] ^(١) ﴿ (الحديد : ٤) .

وبذلك تعرف الحكمة في الفصل بها بين الحديد والحشر ، مع تأخيرهما في الافتتاح بـ ﴿ سَبَّحَ ﴾ ^(٢) .

سُورَةُ الْحَشْرِ

[أقول :] ^(٣) آخر سورة المجادلة نزل فيمن قتل أقرباؤه من الصحابة يوم بدر ^(٤) ، وأول الحشر نازل ^(٥) في غزوة بنى النضير ^(٦) ، وهى عقبها ، وذلك نوع من المناسبة والربط ^(٧) .

وفي آخر تلك : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ (المجادلة : ٢١) ، وفي أول هذه : ﴿ فَأَنذَرْتُهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ « ٢ » .
وفي آخر تلك ذكر من حاد الله ورسوله ^(٨) ، وفي أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله ^(٩) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) نظم الدرر (٧/ ٤٧٤ - ٤٧٥) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) وهو قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (المجادلة : ٢٢) ، وقيل : هم : أبو عبيدة قتل أباه يوم بدر ، وأبو بكر هم بقتل ولده عبد الرحمن ، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيدا ، وعمر قتل قريبا له ، وحمزة وعلى وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة (طبقات ابن سعد : ٣/ ١/ ٣٠٠) .

(٥) في (ظ) : « أنزل » .

(٦) وذلك قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ (الحشر : ٢) وأخرج البخارى في التفسير (٦/ ١٨٣) ، ومسلم في التفسير (٨/ ٢٤٥) عن ابن عباس رضى الله عنهما أو أول الحشر أنزلت في بنى النضير .

(٧) نظم الدرر (٧/ ٥٠٩) .

(٨) وذلك قوله : ﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (المجادلة : ٢٢) الآية .

(٩) وذلك قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (الحشر : ٤) الآية .

سُورَةُ الْمَتَّحَةِ

أقول : لما كانت سورة الحشر في المعاهدين من أهل الكتاب ، عقت بهذه ، لاشتمالها على ذكر المعاهدين من المشركين ، لأنها نزلت في صلح الحديبية ^(١) .

ولما ذكر في الحشر موالة المؤمنين بعضهم بعضاً ثم موالة الذين [نافقوا الكفار] ^(٢) من أهل الكتاب ، افتتح هذه السورة بنهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك ، وكرر ذلك وبسطه ، إلى أن ختم به ، فكانت في غاية الاتصال ، ولذلك فصل بها بين الحشر والصف ، مع تأخيرهما في الافتتاح بـ ﴿سَبِّحْ﴾ ^(٣) .

سُورَةُ الصَّفِّ

أقول : في سورة الممتحنة ذكر الجهاد في سبيل الله ، وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط ^(٤) .

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

أقول : ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما ذكر في سورة الصف حال موسى مع قومه ، وأذاهم له ، ناعياً عليهم ذلك ^(٥) ،

(١) نزلت في حاطب بن أبى بلتعة ، لما أخبر المشركين بعزم النبي صلى الله عليه وسلم على فتح مكة بعد أن نقض المشركون صلح الحديبية ، البخارى في التفسير (٦/١٨٥، ١٨٦) ، والترمذى في التفسير (٩/١٩٨ - ٢٠٢) بتحفة الأحوذى ومسند الإمام أحمد (١/٧٩، ٨٠) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) نظم الدرر (٧/٥٤٧) .

(٤) نظم الدرر (٧/٥٧٠) .

(٥) وذلك في قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقْوِمُوا لِمَ تُوَدُّونَنِي﴾ (الجمعة : ٥) الآية ، =

وذكر في هذه السورة حال الرسول ﷺ ، وفضل أمته ، تشريفاً لهم ،
ليظهر فضل ما بين الأمتين ، ولذا لم يعرض فيها لذكر اليهود .

وأيضاً : لما ذكر ^(١) هناك قول عيسى : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي
اسْمُهُ أَحْمَدٌ ﴾ (الصف : ٦) ، قال هنا : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا
مِنْهُمْ ﴾ « ٢ » إشارة إلى أنه الذي بشر به عيسى ، وهذا وجه حسن في
الربط .

وأيضاً : لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماه تجارة ، ختم
هذه بالأمر بالجمعة ، وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية .

وأيضاً : فتلك سورة الصف ، والصفوف تشرع في موضعين :
القتال ، والصلاة ، فناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة
تستلزم الصف ضرورة ، وهي الجمعة ، لأن الجماعة شرط فيها ، دون
سائر الصلوات .

فهذه وجوه أربعة فتح الله بها .

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون ،
وهذه ذكر فيها أضدادهم ، وهم المنافقون ، ولهذا أخرج الطبراني في
الأوسط عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في

= وقال في الصف عن بنى إسرائيل : إنهم كذبوا عيسى ، وكذبوا على الله ، وأرادوا أن
يطغفوا نور الله ، في الآيات (٦ - ٩) ، ثم ذكر هنا تعليل هذا التكذيب بالغباء ، وأبطل
حجتهم في أنهم شعب الله المختار (٥ - ٧) .
(١) في (ظ) : « حكى » .

صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين ، وبسورة المنافقين يفرع بها المنافقين^(١) .

وتقام المناسبة : أن السورة التي بعدها فيها ذكر المشركين ، والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى^(٢) ، والتي قبلها وهى الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين^(٣) . والتي قبلها وهى الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب^(٤) ، فإنها نزلت فى بنى النضير حين نبذوا العهد وقوتلوا .

وبذلك اتضحت المناسبة فى ترتيب هذه السور الست هكذا ، لاشتمالها على أصناف الأمم ، وفى الفصل بين المسبحات بغيرها^(٥) ، لأن إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من ترك ذلك^(٦) ، وإيلاء سورة المؤمنين بسورة المنافقين أنسب من غيره .

فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التى هى نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير ، فله الحمد على ما فهم وألهم .

هذا وقد ورد عن ابن عباس فى ترتيب النزول : أن سورة التغابن

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٩١/٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه ، وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط ، وقال : إسناده حسن ، وفيه : يقرع بالقاف والراء المهملة ، وأخرج مثله مختصراً عن أبى عبيدة الخولانى وعزاه للطبرانى فى الكبير .

(٢) وذلك فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ إلى ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن : ٥ - ٧) .

(٣) وذلك فى الآيات : (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) .

(٤) وذلك فى الآيتين : (٨ ، ٩) .

(٥) يعنى الفصل بين الحشر ، وأولها : سبح ، وبين التغابن وأولها : يسبح ، بالممتحنة والصف والجمعة والمنافقون .

(٦) فى المطبوعة : « غيره » ، والمثبت من (ظ) .

نزلت عقب الجمعة^(١) ، وتقدم نزول سورة « المنافقون » فما فصل بينهما إلا لحكمة والله أعلم .

سُورَةُ التَّغَابُنِ

أقول : لما وقع في آخر سورة المنافقون : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ (المنافقون : ١٠) الآية ، عقب بسورة التغابن ، لأنه قيل في معناه : إن الإنسان يأتي يوم القيامة ، وقد جمع مالا ، ولم يعمل فيه خيرا ، فأخذه وارثه بسهولة ، من غير مشقة في جمعه ، فأنفقه في وجوه الخير ، فالجامع محاسب معذب مع تعبته في جمعه ، والوارث منعم مثاب ، مع سهولة وصوله إليه ، وذلك هو التغابن^(٢) .

فارتباطه بآخر السورة المذكورة في غاية الوضوح ، ولهذا قال هنا : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُؤَقِّ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . « ١٦ » .

وأیضا ففي آخر تلك : ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (المنافقون : ٩) ، وفي هذه : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ « ١٥ » ، وهذه الجملة كالتعليل لتلك الجملة ، ولذا ذكرت على ترتيبها^(٣) .

وقال بعضهم : لما كانت سورة المنافقون رأس ثلاث وستين سورة ، أشير فيها إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ

(١) الإتيان (٩٧/١) ، وهو عن جابر بن زيد أيضا ، وجابر أحد علماء التابعين بالقرآن .

(٢) تفسير الكواش : (٤ / ورقة ١١٢) (أ) ، خط الأزهرية .

(٣) يعني الأموال أولاً ، والأولاد ثانياً ، وفي كلتا السورتين .

نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴿ (المنافقون : ١١) ، وأنه ^(١) مات على رأس ثلاث وستين سنة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن في فقدته صلى الله عليه وسلم ^(٢) .

سُورَةُ الطَّلَاقِ

أقول : لما وقع في [آخر] ^(٣) سورة التغابن : ﴿ إِنْ مِنْ أَرْوَجِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ (التغابن : ١٤) ، وكانت عداوة الأزواج تفضى إلى الطلاق ، وعداوة الأولاد قد تفضى إلى القسوة ، وترك الإنفاق عليهم ، فعقبت ^(٤) ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق ، والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسببهم .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

أقول : هذه السورة متآخية مع التي قبلها في الافتتاح ^(٥) بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتلك مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإيلاء ، وبينهما من المناسبة ما لا يخفى .

ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة ، ذكر في هذه خصومة نساء النبي صلى الله عليه وسلم إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة ، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة : آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ^(٦) .

(١) في المطبوعة : « فإنه » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) أورد السيوطي هذا القول في الإتيان (٣٠ / ٤) غير معزو كما هو ههنا ، كدليل على أنه ما من شيء إلا ويمكن استخراجه من القرآن .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) في المطبوعة : « عقب » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) في المطبوعة : « بالافتتاح » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) وهما في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ (التحريم ١١ ، ١٢) .

سُورَةُ تَبَارَكَ

أقول : ظهر لى بعد الجهد : أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتى نوح ولوط الكافرتين ، وامرأة فرعون المؤمنة ، افتتحت هذه السورة بقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ « ٢ » مرادًا بهما الكفر والإيمان فى أحد الأقوال ^(١) ، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته ، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط ، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيين الكريمين ، وآمنت امرأة فرعون ، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد ، لما سبق فى كل من القضاء والقدر .

[ثم ظهر لى] ^(٢) وجه آخر : وهو أن [أول] ^(٣) « تبارك » متصل بقوله فى آخر الطلاق : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق : ١٢) ، فزاد ذلك بسطًا فى هذه الآية : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ﴾ « ٣ - ٥ » ، وإنما فصلت بسورة التحريم ؛ لأنها كالتممة لسورة الطلاق ^(٤) .

(١) السلمى : حقائق التفسير ورقة ٢٠١ ، خط .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، وفى المطبوعة : « ووجه » .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) فى (ظ) : « كالقطعة والتممة لسورة الطلاق » .

وانظر : نظم الدرر (٦٢/٨ ، ٦٣) .

سُورَةُ نَـ

أقول : لما ذكر سبحانه في آخر [سورة] ^(١) تبارك التهديد بتغوير الماء ^(٢) ، استظهر عليه في هذه السورة بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلة بطائف طاف عليه ^(٣) وهم نائمون ، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق ^(٤) ، وإذا كان هذا في الثمار وهي أجرام كثيفة ، فالماء الذي هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب ، ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ^(١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿ ١٩ ، ٢٠ ﴾ وقال هناك : ﴿ إِنَّ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ (الملك : ٣٠) إشارة إلى أنه يسرى عليه في ليلة كما أسرى ^(٥) على الثمرة في ليلة .

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

أقول : لما وقع في « ن » ذكر يوم القيامة مجملًا في قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ (القلم : ٤٢) الآية ، شرح ذلك في هذه السورة نبأ ^(٦) هذا اليوم ، وشأنه العظيم ^(٧) .

-
- (١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
 (٢) ورد في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ (ن : الآية : ٣٠) وتغوير الماء : جفافه .
 (٣) في المطبوعة : « يطاف عليه فيها » ، والمثبت من (ظ) .
 (٤) جاء هذا في سورة القلم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ إلى ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَنِينَ ﴾ (القلم : ١٧ - ٣١) .
 (٥) في المطبوعة : « سرى » ، والمثبت من (ظ) .
 (٦) في المطبوعة : « بناء على » تحريف ، والمثبت من (ظ) .
 (٧) وذلك من أول السورة إلى قوله : ﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (الحاقة : ٣٧) .

سُورَةُ سَالٍ

أقول : هذه السورة كالتتمة لسورة الحاقة في بقية وصف يوم القيامة والنار ^(١) .

و[قد] ^(٢) قال ابن عباس : إنها نزلت عقب سورة الحاقة ^(٣) ، وذلك أيضًا من وجوه المناسبة في الوضع .

سُورَةُ نُوحٍ

أقول : أكثر ما ظهر [لى] ^(٤) فى وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه سبحانه لما قال فى (سأل) : ﴿ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴾ ^(٥) عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴿ (المعارج : ٤٠ ، ٤١) عقبه بقصة قوم نوح ، المشتعلة على إغراقهم ^(٥) عن آخرهم ، بحيث لم يبق منهم ديار ^(٦) وبديل خيرًا منهم ، [فوقعت موقع الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى ، كما وقعت قصة أصحاب الجنة فى سورة (ن) موقع الاستدلال والاستظهار] ^(٧) لما ختم به تبارك . هذا مع تأخى مطلع السورتين فى ذكر العذاب الموعد به الكافرين ^(٨) .

(١) وذلك من أول السورة إلى قوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ (المعارج : ١٨) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) الإتيان : (٩٧/١) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) فى المطبوعة : « إبادتهم » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) فى (ظ) : « بحيث أنه لم يبق فى الأرض ديار » .

(٧) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٨) العذاب فى مطلع سأل من أول السورة : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ ^(٩) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿

(المعارج : ١ ، ٢) ، وفى سورة نوح : ﴿ أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(نوح : ١) .

سُورَةُ الْجِنِّ

أقول : قد فكرت مدة في وجه اتصالها بما قبلها ، فلم يظهر لي سوى أنه [سبحانه] ^(١) قال في سورة نوح : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ (نوح : ١٠ ، ١١) ، وقال في هذه السورة [لكفار مكة] ^(٢) : ﴿ وَالْوَلِيُّ اسْتَغْفِرُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝ (١٦) ، وهذا وجه بين في الارتباط ^(٣) .

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

أقول : لا يخفى وجه اتصال أولها : ﴿ قُرْ أَلَيْلَ ۝ (٢) ﴾ بقوله في آخر تلك : ﴿ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ۝ (الجن : ١٩) ، وبقوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ ۝ (الجن : ١٨) ^(٤) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) . (٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) . (٣) ومن المناسبة بين السورتين : أنه تعالى ذكر في نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَعَمْتُ وَعَصَوْتُ وَأَتَّبَعُوا مِنْ لَدُنِّي مَالَهُمْ وَلَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝ (نوح : ٢١) ، ومضى في بيان كفرهم وضلالهم ، إلى أن دعا عليهم نوح ، ثم بين في أول الجن : إنهم كالإنس في الإيمان والكفر ، وأن لكفار الجن اتصالاً بكفار الإنس ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ كَانُوا مِنْ الْإِنْسِ يَتَّبِعُونَ الْإِنْسَ مِنْ الْإِنْسِ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا ۝ (الجن : ٦) ﴿ وَأَنَا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ الَّذِينَ دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَا ۝ (الجن : ١١) ﴿ وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْفَاسِقِينَ ۝ (الجن : ١٤) الآية ، فكانت هذه السورة لبيان الصلة بين الجن والإنس ، وبيان المقارنة بينهما .

(٤) ومن المناسبة أنه تعالى لما قال في نهاية الجن : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ (٢٦) ﴿ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ۝ (الجن : ٢٦ ، ٢٧) افتتح المزمّل بذكر بداية إرسال النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كلف به من شعائر العبودية والعبادة والدعوة ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث بين يدي الساعة كما جاء في السنة ، وقد قال تعالى في الجن : ﴿ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ ۝ (الجن : ٢٥) ، فكانه قال : هذه المزمّل علم من أعلامها ، فهو الذي ارتضاه الله ليظهره على غيبه ، وأنه بين يدي الساعة .

سُورَةُ الْمَدَّثَرِ

أقول : هذه متأخية مع السورة التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم وصدر كليهما نازل في قصة واحدة .

وقد ذكر عن ابن عباس في ترتيب نزول السور : أن المدثر نزلت عقب المزمل [كذا] ^(١) أخرجه ابن الضريس ، وأخرجه غيره عن جابر ابن زيد ^(٢) .

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

أقول : لما قال سبحانه في آخر المدثر : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ (المدثر : ٥٣) بعد ذكر الجنة والنار ، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث ، ذكر في هذه السورة الدليل على البعث [من أوجه] ^(٣) ، ووصف يوم القيامة ، وأحواله ، وأحواله ، ثم ذكر ما قبل ذلك [من خروج الروح من البدن ثم ما قبل ذلك] ^(٤) من مبدأ الخلق ، فذكرت الأحوال [الثلاثة] ^(٥) في هذه السورة على عكس ما هي في الواقع .

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

أقول : وجه اتصالها بسورة القيامة في غاية الوضوح ، فإنه تعالى ذكر في آخر تلك مبدأ خلق الإنسان من نطفة ، ثم ذكر مثل ذلك في

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) وفيها كذلك زيادة إعلام بالساعة وأحوالها في قوله : ﴿ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّفُورِ ﴾ إلى ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ

شَقَقَةُ الشَّيْفِيقِ ﴾ (المدثر : ٨ - ٤٨) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

مطلع هذه السورة ، مفتتحًا بخلق آدم أبى البشر .

ولما ذكر هناك خلقه [من نطفة] ^(١) منهما ، قال هنا : ﴿ جَعَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ (القيامة : ٣٩) ، ولما ذكر هناك خلقه منهما ، قال هنا :
﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ « ٢ » ، فعلق به غير ما علق بالأول ، ثم رتب عليه
هداية السبيل ، وتقسيمه إلى شاكر وكفور ، ثم أخذ في جزاء كل .

ووجه آخر هو : أنه لما وصف حال يوم القيامة في تلك السورة ، ولم
يصف فيها حال النار والجنة ، بل ذكرهما على سبيل الإجمال ، فصلهما
في هذه السورة ، وأطنب في وصف الجنة ^(٢) ، وذلك كله شرح لقوله
تعالى هناك ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٢) وقوله هنا : ﴿ إِنَّا أَغْتَدَنَّا
لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلْنَا وُسْعَهُمْ ﴾ « ٤ » ، شرح لقوله هناك : ﴿ تَنْظُرُونَ أَن
يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٥) .

وقد ذكر هناك : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ (القيامة :
٢٠ ، ٢١) وذكر هنا في هذه السورة : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ
وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ « ٢٧ » ، وهذا من وجوه المناسبة ^(٣) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) تفصيل أحوال المؤمنين في الجنة مفصل هنا من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ
مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ إلى : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ (الإنسان : ٥ - ٢٢) .

(٣) ومن وجوه المناسبة بين سورة الإنسان وسورة القيامة : أنه تعالى فصل في القيامة أحوال
الكافرين عند الموت وما يعانون من قهر وندم في قوله : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ أَجْلَهَا ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ وَقِيلَ مَنْ
رَاقٍ ﴾ إلى ﴿ ثُمَّ أُولَئِكَ لَكُمْ فَآوَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٦ - ٣٥) ، وفي هذه السورة فصل أحوال
المؤمنين في حياتهم ، والتي استوجبوا بها النعيم الموصوف في السورة ، وذلك من قوله :
﴿ يُؤْتُونَ بِاللَّذَّةِ وَيَحْمِلُونَ أَوْثَارَ يَوْمٍ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ إلى ﴿ فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَصْرَهُ وَصُرُّوا ﴾
(الإنسان : ٧ - ١١) .

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما أخبر في خاتمتها أنه ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الإنسان : ٣١) افتتح هذه بالقسم على أن ما يوعدون واقع ، فكان ذلك تحقيقاً لما وعد به هناك المؤمنين ، وأوعد الظالمين .

ثم ذكر وقته وأشراطه بقوله : ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ (٨) إلى آخره .
ويحتمل أن تكون الإشارة بما توعدون^(١) إلى جميع ما تضمنته السورة من وعيد للكافرين ، ووعد للأبرار^(٢) .

(١) في المطبوعة : « يوعدون » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) وهناك مناسبة بين القيامة والإنسان والمرسلات من ناحية خلق الإنسان ففي القيامة قال : ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ تِلْكَ مِنْ مَنِّ بَيْنِي (٣٧) ثُمَّ كَانَتْ عَلَقَةً مَفْطُولًا فَسَوًى (٣٨) فَعَمِلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (القيامة : ٣٧ - ٣٩) ، فذكر بداية الخلق ، وفي الإنسان تدرج إلى الحديث عن إتمام بناء الإنسان حتى صار شديد الأسر ﴿تَحَنَّنْ خَلَقْتَهُمْ وَشَدَدْنَا أُنُوسَهُمْ﴾ (الإنسان : ٢٨) الآية ، ولما كانت قوة الإنسان مظنة كبريائه ، ذكره في المرسلات بمهانة أصله : ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (المرسلات : ٢٠) .

ومعاني السور الثلاث تدور حول الأصول ، ولذلك قال في المرسلات : ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كِتَابٌ فَكِيدُونِ﴾ (المرسلات : ٣٩) ، إعلاماً ببقهره للعباد .

وانظر : نظم الدرر (٨/ ٢٨١) وما بعدها ، ومساعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١٤٧/٣) .

سُورَةُ عَمَّ

أقول : وجه اتصالها بما قبله : تناسبها معها في الجمل ، ففي
المرسلات (١) : ﴿ أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ تُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ (المرسلات :
١٦ ، ١٧) ﴿ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ (المرسلات : ٢٠) ﴿ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ
كِفَاتًا ﴾ (المرسلات : ٢٥) إلى آخره ، وفي عم : ﴿ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنَدًا ﴾ « ٦ »
إلى آخره ، فذلك نظير تناسب جمل : ألم نشرح ، والضحي ، بقوله في
الضحي : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (الضحى : ٦) إلى آخره ، وقوله :
﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح : ١) مع اشتراك هذه السورة والأربع قبلها في
الاشتغال على وصف الجنة والنار ، ماعدا المدثر في الاشتغال على وصف
يوم القيامة وأهواله ، وعلى ذكر بدء الخلق ، وإقامة الدليل على البعث .

وأيضاً في سورة المرسلات : ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِلَّتِ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ (المرسلات : ١٢ - ١٤) ، وفي هذه السورة : ﴿ إِنَّ
يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ « ١٧ ، ١٨ »
إلى آخره ، فكان هذه السورة شرح يوم الفصل المجمل ذكره في السورة
التي قبلها (٢) .

(١) في المطبوعة : « تلك » .

(٢) لم يذكر المؤلف سورة النازعات ، ومناسبتها لما قبلها ، ونرى والله أعلم : أنه طال وصف
يوم القيامة في النبأ ، ثم ذكر في النازعات حجة من أنكرها ورد عليها ، فقال : ﴿ يَقُولُونَ
أَوَلَمْ نَكْمُلْهُمْ فِي الْخَلْقِ ﴿١١﴾ أَلَمْ نَكُنْ عَظَمًا بَحِيرَةً ﴾ (النازعات : ١٠ ، ١١) ، وذكر
ندامتهم على تفريطهم بقوله : ﴿ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾ (النازعات : ١٢) ، ثم أكد
قدرته على إحياء الموتى ، وأقام الدليل عليها في بقية السورة .

[سُورَةُ النَّازِعَاتِ]

ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنها عقب سورة عم ، وأولها يشبه أن يكون قسمًا لتحقيق ما في آخر عم ، أو ما تضمنته كلها على حد ما تقدم في ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ مع ﴿ هَلْ أَتَى ﴾ ﴿ وَالذَّارِبَاتِ ﴾ مع ﴿ قَفْ ﴾ [(١)] .

سُورَةُ عَبَسَ

أقول : وجه وضعها عقب النازعات مع تأخيرها في المقطع ، لقوله هناك : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ ﴾ (النازعات : ٣٤) وقوله هنا : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴾ « ٣٣ » ، وهما من أسماء يوم القيامة (٢) .

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

أقول : لما ذكر في [آخر] (٣) عبس : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَقْرَأُ النَّارُ مِنْ آخِئِهَا ﴾ (عبس : ٣٣ ، ٣٤) الآيات ، ذكر يوم القيامة كأنه رأى عين [شرح حاله في هذه السورة ، والتي بعدها ، ولهذا ورد] (٤) في الحديث : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين ، فليقرأ :

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٢) لم يذكر المؤلف سر الترتيب ، ونقول : إن الطامة من الطم ، من طمط البئر إذا كبستها ، وسميت به القيامة لأنها تطم كل شيء ، والصاخة من الصخ ، وهو الصوت الشديد ، وسميت به لأنه بشدة صوتها يجرى لها الناس ، وخصت النازعات بالطم لأنه قبل الصخ ، فكانت عبس لاحقة للنازعات بطبعها . انظر : (أسرار التكرار في القرآن : ٢٠١) .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ « ١ » و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ (الانفطار : ١) و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ^(١) (الانشقاق : ١) .

سُورَةُ الْانْفِطَارِ

أقول : قد عرف مما ذكرت وجه وضعها هنا ، مع زيادة تأخيرهما في المقطع ^(٢) .

سُورَةُ الْمَطَفِّينِ

أقول : الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التي هي نظيرتها من خمسة أوجه : الافتتاح بـ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ ﴾ (الانفطار ، الانشقاق) ، والتخلص بـ ﴿ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ ﴾ (الانفطار ، الانشقاق : ٦) ، وشرح حال يوم القيامة ، ولهذا ضمت بالحديث السابق ، والتناسب في المقدار ، وكونها مكية .

وهذه السورة مدنية [وأطول منهما] ^(٣) ، ومفتتحها ومخلصها غير ما لهما ^(٤) لنكتة [لطيفة] ^(٥) ألهمنيها الله ، وذلك أن السور الأربع لما كانت في صفة حال يوم القيامة ، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه .

فغالب ما وقع في التكوير ، وجميع ما وقع في الانفطار ، يقع ^(٦) في

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٧٢/٢) ، والترمذى في التفسير (٢٥٢/٩ ، ٢٥٣) بتحفة الأhoodى .

(٢) مقطع التكوير : ﴿ وَمَا نَسَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (التكوير : ٢٩) ، ومقطع الانفطار : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (الانفطار : ١٩) ، وهما بمعنى ، وفي (ظ) : « المطلع » .

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٤) في المطبوعة : « لها » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) في المطبوعة : « وقع » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

صدر يوم القيامة ، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ، ومقاساة العرق والأهوال ، فذكره في هذه السورة بقوله : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦﴾ ولهذا ورد في الحديث : « يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه » ^(١) .

ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى ، فتنشر الكتب ، فأخذ باليمين ، وأخذ بالشمال ، وأخذ من وراء الظهر ، ثم بعد ذلك يقع الحساب .

هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث ، فناسب تأخير سورة الانشقاق التى فيها إتيان الكتب والحساب ^(٢) ، عن السورة التى قبلها ، والتى فيها ذكر الموقف عن التى فيها مبادئ يوم القيامة .

ووجه آخر وهو : أنه جل جلاله لما قال فى الانفطار : ﴿وَلَوْ عَلَيكُمُ الْحَفِظِينَ﴾ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينٍ ﴿١١﴾ (الانفطار : ١٠ ، ١١) ، وذلك فى الدنيا ، ذكر فى هذه السورة حال ما يكتبه الحافظان ، وهو : كتاب مرقوم جعل ^(٣) فى عليين ، أو فى سجين ، وذلك أيضًا فى الدنيا ، لكنه عَقَّبَ بالكتابة ، إما فى يومه ، أو بعد الموت فى البرزخ كما فى الآثار ، فهذه حالة ثانية للكتاب ^(٤) ذكرت فى السورة الثانية .

وله حالة ثالثة متأخرة عنها ^(٥) ، وهى أخذ صاحبه باليمين أو غيرها ، وذلك يوم القيامة ، فناسب تأخير السورة التى فيها ذلك ، عن

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (٢٠٧/٦) عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وأحمد فى المسند مع اختلاف فى اللفظ (١٣/٢ ، ١٩) ، وعلى المطابقة (٣١/٢) .

(٢) وذلك فى قوله : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَتْ كِتَابُهُ يَمِينُهُ﴾ إلى : ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ (الانشقاق : ٧ - ١٢) .
(٣) فى (ظ) : « يجعل » .

(٤) فى المطبوعة : « فى الكتاب » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) فى المطبوعة : « فيها » ، والمثبت من (ظ) .

السورة التى فيها الحالة الثانية ، وهى الانشقاق ، فله الحمد على ما من بالفهم لأسرار كتابه ^(١) .

ثم رأيت الإمام فخر الدين قال فى سورة المطففين أيضًا : اتصال أولها بآخر ما قبلها ظاهر ، لأنه تعالى بين هناك أن يوم القيامة من صفته [أنه] ^(٢) ﴿ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَنًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (الانفطار : ١٩) وذلك يقتضى تهديدًا عظيمًا للعصاة ، فلهذا أتبعه بقوله : ﴿ وَيَلِّ الْمُطَفِّفِينَ ﴾ « ١ » الآيات ^(٣) .

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

قد استوفى الكلام فيها فى سورة المطففين .

سُورَةُ الْبُرُوجِ وَالطَّارِقِ

أقول : هما متآخيتان فقرنتا ، وقدمت الأولى لطولها ، وذكرنا بعد الانشقاق للمؤاخاة فى الافتتاح بذكر السماء ، ولهذا ورد فى الحديث ذكر السموات مرادًا بها السور الأربع ^(٤) ، كما قيل : المسبحات .

(١) انظر : مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١٦٨/٣) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) انظر : مفاتيح الغيب للرازى (٤٩٦/٨) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣٢٧/٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبی صلی الله عليه وسلم أمر أن يقرأ بالسموات فى العشاء ، يعنى : السور الأربع المفتحة بذكر السماء .

سُورَةُ الْأَعْلَى

أقول : في سورة الطارق ذكر خلق [النبات] والإنسان في قوله : ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ ^(١) (الطارق : ١٢) [وقوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ إلى ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (الطارق : ٥ - ٨) ، وذكره في هذه السورة في قوله : ﴿ خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ « ٢ » ، وقوله في النبات : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ ^(٢) فجعله غُثَاءً أَحْوَى ﴾ « ٤ » ، « ٥ » ، وقصة النبات في هذه السورة أبسط ، كما أن قصة الإنسان هناك أبسط ، نعم ، ما في هذه السورة أعم ، من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات .

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

أقول : لما أشار سبحانه في سورة الأعلى بقوله : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ ^(١٠) وَيَنْجَنِيهَا الْأَشْقَى ^(١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (الأعلى : ١٠ - ١٧) إلى المؤمن والكافر ، والنار والجنة إجمالاً ، فصل ذلك في هذه السورة ، فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما ، على نمط ما هنالك ، ولذا قال [هنا] : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ « ٣ » في مقابل : ﴿ الْأَشْقَى ﴾ (الأعلى : ١١) [هناك] وقال [هنا] ﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ « ٤ » إلى : ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ « ٧ » في مقابلة : ﴿ يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ (الأعلى : ١٢) [هناك] ، ولما قال [هناك] في الآخرة : ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (الأعلى : ١٧) بسط [هنا] صفة الجنة أكثر من صفة النار ، تحقيقاً لمعنى الخيرية .

(١) والصدع : النبات ، والأرض تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار ، والصدع بمعنى الشق ؛ لأنه يصدع عن الأرض . انظر : العمدة في غريب القرآن ص (٣٤٣) .

سُورَةُ الْفَجْرِ

أقول : لم يظهر لى في ^(١) وجه ارتباطها سوى أن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التى قبلها ، من قوله جل جلاله : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (الغاشية : ٢٥ ، ٢٦) ، وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد ، كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما فى (ق) ، وأول المرسلات قسم على تحقيق ما فى [هَلْ أَتَى وَأَوَّلُ ﴾ وَالنَّزْعَتِ ﴾ قسم على تحقيق ما فى] ^(٢) (عم) .

هذا مع أن جملة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ «٦» هنا ، مشابهة لجملة ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ ﴾ (الغاشية : ١٧) هناك ^(٣) .

سُورَةُ الْبَلَدِ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما ذم فيها من أحب المال ،

(١) فى المطبوعة : « من » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) بل هناك وجه ارتباط أوضح مما ذكر المؤلف ، وذلك أنه تعالى ذكر فى الغاشية صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ما ذكر فى سورة الأعلى ، ثم زاد الأمر تفصيلاً فى الفجر بذكر أسباب عذاب أهل النار ، فضرب لذلك مثلاً بقوم عاد ، وقوم فرعون ، فى قوله : ﴿ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ إلى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر : ٦ - ١٤) ، ثم ذكر بعض عناصر طغيانهم فى قوله : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ ﴾ (الفجر : ١٧) وما بعدها ، فكانت هذه السورة بمثابة إقامة الحجة عليهم .

وكذلك جاء فى الغاشية : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (١١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّرٍ ﴾ (الغاشية : ٢١) ، ثم ذكر فى الفجر مادة تذكير من كان قبلهم من الكفار ، ثم أخذ الله إياهم فى الدنيا ، وأنه سيعذبهم فى الآخرة ، وأن الندم لن ينفعهم شيئاً ، فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ ﴾ (١٣) يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر : ٢٣ ، ٢٤) .

وأكل^(١) التراث ، ولم يحض على طعام المسكين ، ذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال ، من فك الرقبة ، والإطعام في يوم ذى مسغبة^(٢) .

سُورَةُ الشَّمْسِ وَاللَّيْلِ وَالضُّحَى

أقول : هذه الثلاثة حسنة التناسق جدًا ، لما في مطالعها من المناسبة ، لما بين الشمس والليل^(٣) والضحى من الملازمة ، ومنها سورة الفجر ، لكن فصلت بسورة البلد لنكتة أهم ، كما فصل بين الانفطار والانشقاق ، وبين المسبحات ؛ لأن مراعاة التناصب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول ، إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وأكد في المناسبة .

ثم إن سورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد ، فإنه سبحانه لما ختمها بذكر أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، أراد الفريقين في سورة الشمس على سبيل الفَذْلَكَةِ^(٤) فقوله [في الشمس] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ « ٩ » هم أصحاب الميمنة في سورة البلد ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ « ١٠ » [في الشمس] ، هم أصحاب المشأمة في سورة

(١) في المطبوعة : « وأكثر » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٢) ومن التناصب أيضًا بين هذه السور وسابقتها : أنه تعالى لما ذكر في تلك ابتلاء الإنسان بضيق الرزق بسبب عدم إطعام المسكين ، وعدم إكرام اليتيم ، ونعى عليه حب المال ، ذكر في هذه ندمه يوم القيامة ، وتذكره حبس المال ، وذلك حين يقول : ﴿ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر : ٢٤) .

(٣) في (ظ) : « والقمر » .

(٤) الفَذْلَكَةُ : مُجْمَلٌ مَا فُضِّلَ وَخُلَاصَتُهُ (وهى كلمة مولدة : أى استعملها الناس قديمًا بعد عصر الرواية) . انظر : « المعجم الوسيط » (فذلكة) (٧٠٣ / ٢) .

البلد ، فكانت هذه السورة فَذَلِكَا تفصيل تلك السورة ، ولهذا قال الإمام : المقصود من هذه السورة : الترغيب في الطاعات ، والتحذير من المعاصي .

ونزيد في سورة الليل : أنها تفصيل إجمال سورة الشمس ، فقله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ (الليل : ٥) وما بعدها ، تفصيل ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (الشمس : ٩) ، وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ (الليل : ٨) الآيات ، تفصيل قوله : ﴿ وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (الشمس : ١٠) .

ونزيد في سورة الضحى : أنها متصلة بسورة الليل من وجهين ، فإن فيها : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ (الليل : ١٣) ، وفي الضحى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ « ٤ » ، وفي الليل : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ (الليل : ٢١) وفي الضحى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ « ٥ » .

ولما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه صلى الله عليه وسلم ، افتتحت بالضحى ، الذى هو نور ، ولما كانت سورة الليل [نازلة في بخیل في قصة طويلة ، افتتحت بالليل الذى هو ظلمة .

قال الإمام : سورة الليل ^(١) سورة أبى بكر ، يعنى : ماعدا قصة البخيل ^(٢) ، وكانت سورة الضحى سورة محمد ، عقب بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم ألا واسطة بين محمد وأبى بكر .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) ، وانظر هذه القصة في تفسير القرآن العظيم لابن أبى حاتم (١/٣٤٣٩ - ٣٤٤٠) .

(٢) الذى نزل في أبى بكر رضي الله عنه من هذه السورة قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ إلى ﴿ فَسَيَرْضَى ﴾ (الليل : ٥ - ٧) أخرج ابن جرير أنه كان يعتق على الإسلام بمكة عجائز ونساء إذا أسلمن فلامه أبوه ، فنزلت (تفسير ابن جرير الطبرى ٣٠/١٤٢) .

سُورَةُ النَّاسِ

أقول : هي شديدة الاتصال بسورة الضحى ، لتناسبهما في الجمل ، ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما ^(١) قال الإمام : والذي دعاهم إلى ذلك هو : أن قوله ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ كالعطف على ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (الضحى : ٦) [في الضحى] ^(٢) .

قلت : وفي حديث الإسراء أن الله تعالى قال : « يا محمد ، ألم أجدك يتيماً فأويت ، وضالاً فهديت ، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت » الحديث ، أخرجه ابن أبي حاتم ^(٣) ، وفي هذا أوفى دليل على اتصال السورتين معنى .

سُورَةُ التِّينِ

أقول : لما تقدم في سررة الشمس : ﴿ وَنَفِيسَ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (الشمس : ٧) فصل في هذه السورة بقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ثم رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿ ٤ ، ٥ ﴾ إلى آخره .

(١) نقل هذا القول فخر الدين الرازى في تفسيره عن طاوس وعمر بن عبد العزيز (تفسير سورة الضحى) .

(٢) هي كالعطف في المعنى لا في اللفظ ، ثم إن هذه السورة شرح لسابقتها ، فشرح الصدر هناك ، مفصل هنا ببيان عناصره وأسبابه التي هي : الإيواء بعد اليتيم ، والهداية بعد الضلال ، والغنى بعد العيلة ، فتلك كلها من عوامل انشراح الصدر للإيمان ، لا سيما وقد جاءت بعد وعد بالعتاء حتى يرضى الرسول ﷺ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣٤٤٣ / ١٠) والحديث ذكره أيضاً ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم (٤٥٢ / ٨) ، وانظر : الدر المنثور (٥٤٥ / ٨ - ٥٤٦) .

وأخرت هذه السورة لتقدم ما هو أنسب بالتقديم من السور الثلاث^(١) واتصالها بسورة البلد لقوله : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ «٣» وأخرت لتقدم ما هو أولى بالمناسبة مع سورة الفجر^(٢) .

لطيفة :

نقل الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى^(٣) فى « لطائف المنن » عن الشيخ أبى العباس المرسى^(٤) ، قال : قرأت مرة : ﴿ وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ثم رددته أسفل سَفَلِينَ ﴿ ٤ ، ٥ ﴾ ففكرت فى معنى هذه الآية ، فألهمنى الله أن معناها^(٥) : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، روحاً وعقلاً ثم رددناه أسفل سافين نفساً وهوى^(٦) .

قلت : فظهر من هذه المناسبة وضعها بعد ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ ، فإن تلك أخبر فيها عن شرح صدر النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك يستدعى كمال عقله وروحه ، فكلاهما فى القلب الذى محله الصدر ، وعن

(١) يعنى (الليل ، والضحى ، وألم نشرح) فإن مناسباتها متوالية هكذا أهم من تقديم التين بعد الشمس .

(٢) يعنى أن اتصال سورة الشمس بالبلد ، واتصال البلد بالفجر ، أولى من اتصال التين بالبلد لمجرد ذكر (البلد فى كليهما) .

(٣) هو الشيخ الإمام العالم العامل العارف بالله أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عطاء الله السكندرى المالكى الشاذلى ، كانت له جلالة عظيمة ووقع فى النفوس ، ومشاركة فى الفضائل ، وكان أعجوبة زمانه فى التصوف . انظر : « شذرات الذهب » (١٩ / ٦ - ٢٠) و « لطائف المنن » (٧) .

(٤) هو أبو العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى شيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى . انظر : « لطائف المنن » (١٩) .

(٥) فى (ظ) : « فكشف لى عن اللوح المحفوظ ، فإذا مكتوب فيه » ، وكذا فى « لطائف المنن » (١٣٤) (طبعة دار المعارف) .

(٦) انظر : « لطائف المنن » (ص ١١٨) ، المطبعة الفخرية ١٩٧٢م القاهرة .

تبرئته^(١) من الوزر الذي ينشأ عن^(٢) النفس والهوى ، وهو معصوم منهما ، وعن رفع الذكر ، حيث نزه مقامه عن كل وصم^(٣) .
فلما كانت هذه السورة في هذا العلم الفرد من الإنسان ، أعقبها بسورة مشتملة على بقية الأناسي ، وذكر ما خامرهم من^(٤) متابعة النفس والهوى .

سُورَةُ الْعَلَقِ

أقول : لما تقدم في سورة التين بيان خلق الإنسان في أحسن تقويم ، بين هنا أنه تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ « ٢ » وذلك ظاهر الاتصال ، فالأول بيان العلة الصورية ، وهذا بيان العلة المادية^(٥) .

سُورَةُ الْقَدَرِ

قال الخطابي^(٦) : لما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على

(١) في المطبوعة : « خلاصه » ، والمثبت من (ظ) .

(٢) في المطبوعة : « من » ، والمثبت من (ظ) .

(٣) في المطبوعة : « موهم » ، والمثبت من (ظ) .

(٤) في المطبوعة : « في » ، والمثبت من (ظ) .

(٥) أقول : ومن المناسبة بين التين والعلق :

(أ) أنه تعالى لما قال في آخر التين : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخَائِكِينَ ﴾ (التين : ٨) بين في أول

العلق أنه تعالى مصدر علم العباد بحكمته ، فبين أنه ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (العلق : ٤ ، ٥) ، وصدر ذلك بالأمر بالقراءة ، واستفتاحها باسمه دائماً ، لتكون

للإنسان عوناً على كمال العلم بحكمة أحكم الحاكمين .

(ب) لما ذكر في التين خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وردّه إلى أسفل سافلين ، بين في

العلق تفصيل الحالين وأسبابهما من أول قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا مُغْفِرٌ ﴾ (العلق : ٦ ، ٧) إلى ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ يَدَهُ يَمِينًا ﴾ (العلق : ١٤) .

(٦) الخطابي هو : أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان ، له شرح سنن أبي داود وبيان إعجاز

القرآن ، توفي سنة ٣٨٨ (وفیات الأعيان ١/ ١٦٦) ، والنقل من (البرهان لأبي جعفر بن

الزبير) كما قال السيوطي (الإتيقان : ٣/ ٣٨٣) .

القرآن ، ووضعوا سورة القدر عقب العلق ، استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (١) الإشارة إلى قوله ﴿ أَقْرَأْ ﴾ (العلق : ١) .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : وهذا بديع جدًا (١) .

سُورَةُ لَمَّيْكَنْ

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها ، كأنه لما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ (القدر : ١) قيل : لم أنزل ؟ فقيل : لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم ، حتى تأتيهم البينة ، وهو رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة ، وذلك هو المنزل .

وقد ثبتت الأحاديث بأنه كان في هذه السورة قرآن نُسخ رسمه وهو : إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم واديًا لابتغى إليه الثاني ، ولو أن له الثاني لابتغى إليه الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب (٢) .

وبذلك تشتد المناسبة بين هذه السورة وبين ما قبلها ، حيث ذكر

(١) أقول : وهناك مناسبة أخرى خفية ، هي أنه تعالى لما ختم العلق بالأمر بالسجود والاقتراب من الله ، وكان المقصود من الاقتراب ، التعرض للرحمة الفائضة من الله على المصلي ، والصلاة لا تكون إلا بقرآن ، ذكر في أول هذه السورة أن القرآن رحمة في ذاته ، ورحمة في الزمان الذي نزل فيه وهو ليلة القدر التي تنزل الملائكة فيها بالروح والسلام على الكون .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أبي واقد الليثي (٢١٨/٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤٧/٣ ، ٢٤٨) ، والقضاعي في مسند الشهاب (٣١٨/٢) ، والدارقطني في العلل الواردة في الأحاديث (٢٩٨/٦) وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٠/٧) إلى أحمد والطبراني ، وقال : رجال أحمد رجال الصحيح .

هناك إنزال القرآن ، وهنا إنزال المال ، وتكون السورتان تعليلاً^(١) لما تضمنته سورة اقرأ ، لأن [في]^(٢) أولها ذكر العلم ، وفي أثنائها ذكر المال ، فكأنه قيل : إنا لم ننزل المال للطغيان والاستطالة والفخر ، بل ليستعان به على تقوانا ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة^(٣) .

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

أقول : لما ذكر في آخر (لم يكن) أن جزاء الكافرين جهنم ، وجزاء المؤمنين جنات ، فكأنه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقيل : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ « ١ » أى [حين] تكون^(٤) زلزلة الأرض ، إلى آخره .

هكذا ظهر لى ، ثم لما راجعت تفسير الإمام الرازى ، ورأيت ذكر نحوه فحمدت^(٥) الله كثيراً ، وعبارته : ذكروا فى مناسبة هذه السورة لما قبلها وجوها منها : أنه تعالى لما قال : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ ﴾ (البينة : ٨) فكأن المكلف قال : ومتى يكون ذلك يا رب ؟ فقال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ ﴾ « ١ » .

ومنها : أنه لما ذكر فيها وعيد الكافرين ، ووعد المؤمنين ، أراد أن يزيد فى وعيد الكافرين فقال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ ﴾ ونظيره : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾^(٦) ثم ذكر ما للطائفتين فقال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ

(١) فى (ظ) : « تفصيلاً » .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) العلم فى قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ مَا لَمْ يَلْمَ ﴾ (العلق : ٥) ، والمال فى قوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ (العلق : ٦ ، ٧) .

(٤) فى (ظ) : « يكون يوم » .

(٥) فى المطبوعة : « حمدت » ، والمثبت من (ظ) .

(٦) سورة آل عمران : ١٠٦ .

وَجُوهٌ وَتَسْوَدُ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴿١﴾ إِلَى آخِرِهِ ، ثُمَّ جُمِعَ بَيْنَهُمَا هُنَا فِي آخِرِ السُّورَةِ بِذِكْرِ الذَّرَّةِ مِنْ ﴿٢﴾ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . انْتَهَى ^(٣) .

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

أقول : لا يخفى ما بين قوله في الزلزلة : ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا﴾ (الزلزلة : ٢) وقوله في هذه السورة : ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿٩﴾ من المناسبة والعلاقة ^(٤) .

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

قال الإمام : لما ختم الله سبحانه السورة السابقة بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ﴿١١﴾ فكأنه قيل : وما ذاك ؟ فقال : هي القارعة ، قال : وتقديره : ستأتيك القارعة على ما أخبرت عنه في قولي ^(٥) : ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ^(٦) ﴿٩﴾ .

(١) سورة آل عمران : ١٠٦ .

(٢) في المطبوعة : «الذى يعمل» والمثبت من (ظ) .

(٣) مفاتيح الغيب ، للرازي (٦٥٨/٨) وما بعدها .

(٤) أقول : وهناك مناسبة أخرى هي : بيان الأصل الذي يضل به الإنسان أو يهتدى ، فلما ذكر في آخر الزلزلة جزاء الإنسان على الخير والشر ، بيّن هنا أن الإنسان بطبعه يحب الخير ، وحبه للخير إما للدنيا وهو الشر ، وإما للآخرة وهو حقيقة الخير ، فهذا الحب هو الذي يوجه الأعمال ، ثم ذكر الإنسان بيوم يكشف فيه عما في القلوب من نوايا خفية : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ (العاديات : ٩ ، ١٠) إلى آخر السورة ، وقد زاد الأمر تفصيلاً في السور التالية .

(٥) في المطبوعة : «بقولي» ، والمثبت من (ظ) .

(٦) مفاتيح الغيب ، للرازي (٦٦٣/٨) .

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها ، كأنه لما قال هناك : ﴿ فَأَمَّا هَآوِيَةٌ ﴾ (الفارقة : ٩) قيل : لم ذلك ؟ فقال : لأنكم ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ « ١ » فاشتغلتم بدنياكم [عن دينكم] ^(٢) ، وملأتم موازينكم بالحطام ، فخفت موازينكم بالآثام ، ولهذا عَقَّبَهَا بسورة والعصر ، المشتملة على أن الإنسان في خسر ، بيان لخسارة تجارة الدنيا ، وربح ^(٣) تجارة الآخرة ، ولهذا عَقَّبَهَا بسورة الهمزة ، المتوَعَّد فيها مَنْ ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوا ﴾ ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ (الهمزة : ٢ ، ٣) فانظر إلى تلاحم هذه السور الأربع ، وحسن اتساقها ^(٤) .

سُورَةُ الْفِيلِ

[أقول :] ^(٥) ظهر لي في وجه اتصالها بعد الفكرة : أنه تعالى لما ذكر حال الهمزة اللُّمَزَة ، الذي جمع مَالًا وعدّه ، وتعزز بماله وتقوى ، عَقَّبَ ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل ، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وعتّوا ، وقد جعل كيدهم في تضليل ، وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه ، وجعلهم كعصف مأكول ، ولم يغن عنهم مالهم ولا عددهم ^(٦) ولا شوكتهم ، ولا فيلهم شيئاً .

(١) في (ظ) : « ألهاكم » .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٣) في (ظ) : « ونماء » .

(٤) ومن المناسبة كذلك : التصريح هنا بوزن الأعمال التي أجملها في الزلزلة ، وبين أصلها في العاديات وانظر مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣/ ٢٤١) .

(٥) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٦) في المطبوعة : « عزهم » ، والمثبت من (ظ) .

فمن كان قصارى تعزُّزه وتقوُّيه بالمال ، وهمز^(١) الناس بلسانه ،
أقرب إلى الهلاك ، وأدنى إلى الذلة والمهانة .

سُورَةُ قُرَيْشٍ

هى شديدة الاتصال بما قبلها ، لتعلق الجار والمجرور فى أولها
بالفعل فى آخر تلك ، ولهذا كانتا فى مصحف أبى سورة واحدة^(٢) .

سُورَةُ الْمَاعُونِ

أقول : لما ذكر [الله]^(٤) تعالى فى سورة قريش : ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
مِّنْ جُوعٍ﴾ (قريش : ٤) ذكر هنا ذم من لم يحض على طعام المسكين .
ولما قال هناك : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (قريش : ٣) ذكر^(٥)
هنا من سها عن صلاته^(٦) .

(١) فى (ظ) : « وأذى » .

(٢) نقله السيوطى عن السخاوى فى كتاب جمال القراء عن جعفر الصادق ، وأبى نهيك ،
وقال : ويرده ما أخرجه الحاكم والطبرانى من حديث أم هانئ رضى الله عنها أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : فضل الله قريشاً بسبع ، وأن الله أنزل فيهم سورة من
القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم : لإيلاف قريش ، ومع ذلك فصلة قريش بالقبيل قائمة ،
فكان ما فعل الله بأصحاب القبيل كان لإيلاف قريش ، ولتأمين طريق تجارتهم فى رحلتى
الشتاء والصيف ، وقد كان من أهداف أبرهة السياسية حرمان قريش من تجارتهم هذه .

(٣) فى (ظ) : « الدين » .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) فى (ظ) : « ذم » .

(٦) أقول : إن السورة بكاملها تسير مع الخط الذى يبدأ من سورة الزلزلة كما قلنا ، فهى ترشد
إلى الطريق السليم لاستعمال المال ، وبذله فى عون اليتامى ، وإطعام المساكين ، وذلك عن
طريق التحذير من إهمال هذا الطريق ، وتسمية مانع العون مكذباً بالدين .

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

قال الإمام فخر الدين : هي كالمقابلة للتي قبلها ؛ لأن السابقة وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة ، وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ « ١ » أى : الخير الكثير ، وفي مقابلة ترك الصلاة : ﴿ فَصَلِّ ﴾ « ٢ » أى : دُم عليها ، وفي مقابلة الرياء : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ « ٢ » أى : لرضاه ، لا للناس ، وفي مقابلة منع الماعون : ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ « ٢ » وأراد به : التصديق بلحوم الأضاحى ، قال : فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ^(١) .

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما قال : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ (الكوثر : ٢) أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد إلا ربه ، ولا يعبد ما يعبدون ، وبالعكس فى ذلك فكرر ، وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه .

سُورَةُ النَّصْرِ

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه [لما] ^(٢) قال فى آخر ما قبلها ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون : ٦) فكان فيه إشعار بأنه خلص له دينه ، وسلم من شوائب الكدر ^(٣) والمخالفين ، فعقَّب ببيان وقت ذلك ، وهو مجيء

(١) انظر : « مفاتيح الغيب » ، للرازى (٨/ ٧٠٠ ، ٧٠١) ، وانظر : « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » (٨/ ٥٤٧) وما بعدها ، وفيه كلام قريب من كلام الرازى .
(٢) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .
(٣) فى المطبوعة : « الكفار » ، والمثبت من (ظ) .

الفتح والنصر ، فإن الناس حين^(١) دخلوا في دين الله أفواجًا ، فقد تم^(٢) الأمر وذهب الكفر^(٣) ، وخلص دين الإسلام ممن كان يناوئه ، ولذلك كانت السورة إشارة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم^(٤) .

وقال الإمام فخر الدين : كأنه تعالى يقول : لما أمرتك في السورة المتقدمة بمجاهدة جميع الكفار ، بالتبري منهم ، وإبطال دينهم ، جزيتك على ذلك بالنصر والفتح ، وتكثير الأتباع^(٥) .

قال : ووجه آخر ، وهو : أنه لما أعطاه [الله]^(٦) الكوثر ، وهو : الخير الكثير ، ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه ، فعقبها بمجاهدة الكفار ، والتبري منهم ، فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح ، وإقبال الناس أفواجًا إلى دينه ، وأشار إلى دنوّ أجله ، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال .

* توقع زوالاً إذا قيل تم *^(٧)

* * *

(١) في (ظ) : « حينئذ » .

(٢) في (ظ) : « وتم » .

(٣) في (ظ) : « الكدر » .

(٤) أخرج البخارى هذا المعنى في التفسير (٦/ ٢٢٠ ، ٢٢١) ، عن ابن عباس رضى الله عنهما والإمام أحمد في المسند (١/ ٢١٧ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦) ، وابن جرير في التفسير (٣٠/ ٢١٥) .

(٥) انظر : « مفاتيح الغيب » للرازى (٨/ ٧٢٩) وما بعدها .

(٦) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) وهى في المصادر .

(٧) انظر : « مفاتيح الغيب » للرازى (٨/ ٧٤٣) ، وانظر : « نظم الدرر » (٨/ ٥٥٩) وما بعدها .

سُورَةُ تَبَّتْ

قال الإمام : وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما قال : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون : ٦) فكأنه قيل : إلهي ، وما جزائي ؟ فقال الله له : النصر والفتح ، فقال : وما جزاء عمي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام ؟ فقال : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ «١» الآيات .

وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر معللاً^(١) بقوله : ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ ويكون الوعيد راجعاً إلى قوله : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ على حد قوله : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ (آل عمران : ١٠٦) .

قال : فتأمل في هذه المجانسة الحافلة^(٢) بين هذه السور ، مع أن سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة^(٣) ، والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة^(٤) ، ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله ، وبأمره .

قال : ووجه آخر : وهو : أنه لما قال : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون : ٦) كأنه قيل : يا إلهي ، ما جزاء المطيع ؟ قال : حصول النصر والفتح ، فقيل : وما ثواب العاصي ؟ قال : الخسارة في الدنيا ، والعقاب في العقبى ، كما دلت عليه سورة تَبَّتْ^(٥) .

(١) في «ظ» : «متصلاً» .

(٢) في «ظ» : «الحاصلة» .

(٣) أخرجه مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما (٨/ ٢٤٢ ، ٢٤٣) ، وفيها أنها آخر سورة نزلت .

(٤) انظر : «الإتقان» (١/ ٩٦) .

(٥) انظر : «مفاتيح الغيب» ، للرازي (٨/ ٧٤٤) وما بعدها ، وكذا «نظم الدرر» (٨/ ٥٦٧) وما بعدها .

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

قال بعضهم : وضعت ههنا للوزان في اللفظ بين فواصلها ومقطع سورة تَبَّت .

وأقول : ظهر لى هنا غير الوزان في اللفظ : أن هذه السورة متصلة بقل يا أيها الكافرون في المعنى ، ولهذا قيل : من أسمائها أيضًا : الإخلاص ، وقد قالوا : إنها اشتملت على التوحيد ، وهذه أيضًا مشتملة عليه ، ولهذا قرن بينهما في القراءة في الفجر ، والطواف ، والضحى ، وسنة المغرب ، وصبح المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة ^(١) .

وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون ، صرح هنا بلازم ذلك ، وهو أن معبوده أحد ^(٢) ، وأقام الدليل عليه بأنه صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك ، وليس في معبوداتهم ما هو كذلك .

وإنما فصل بين النظيرتين بالسورتين ^(٣) لما تقدم من الحكمة ، وكأن إيلاءها سورة تبت ورد عليه بخصوصه .

(١) أخرج الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عمر رضى الله عنهما (١٢٠/٢) أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر سفرًا بالكافرين والإخلاص ، وأخرج ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٩٩/٣) عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول بضعة وعشرين مرة : «نعم السورتان ، يقرأ في الركعتين : الأحد الصمد ، وقل يا أيها الكافرون» وأخرج عن أبي يعلى من حديث جبير ابن مطعم أنه صلى الله عليه وسلم أمره أن يقرأ : «الكافرون ، والنصر ، والإخلاص ، والمعوذتين» (المصدر السابق : ٣٩٨/٣) .

(٢) في (ظ) : «واحد» .

(٣) يعنى بين (الكافرين والإخلاص) بالنصر وتبت .

سُورَةُ الْفَلَقِ وَالنَّاسِ

قال : أقول : هاتان السورتان نزلتا ^(١) معاً ، كما في الدلائل للبيهقي ، فلذلك قُرتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أعوذ ، وعَقَّبَ بهما سورة الإخلاص ، لأن الثلاثة سميت في الحديث بالمعوذات ، وبالقواقل ^(٢) .

وقدمت الفلق على الناس - وإن كانت أقصر منها - لمناسبة مقطعها في الوزن لفواصل الإخلاص مع مقطع تبت ^(٣) .

وهذا آخر ما من الله به على من استخراج مناسبات ترتيب السور ، وكله من مستنبطاتي ، ولم أعثر فيه على شيء لغيري إلا النزر اليسير الذي صرحت بعزوي له ، فله الحمد على ما ألهم ، والشكر على ما مَنَّ به وأنعم ، سبحانه لا أحصى ثناء عليك ، أنت كلما أثبتت على نفسك .

ثم رأيت الإمام فخر الدين ذكر في تفسيره ^(٤) كلاماً لطيفاً في

(١) في المطبوعة : « نزلنا » تحريف ، والمثبت من (ظ) .

(٢) الذي عثرت عليه حديث عبد الله بن خبيب عن أبيه رضى الله عنهما قال : أصابنا طش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيدي فقال : « قل ، فسكت . فقال : قل ، فقلت : ما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثاً تكفك ، كل يوم مرتين » (مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٥ ، وأبو داود في الأدب ما يقول إذا أصبح : ١٧٦/٢ ، والنسائي في الاستعاذة : ٢٥٠/٨ ، والترمذي في الدعوات : ٣٤٧/٩) وحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بهن كل ليلة ثلاث مرات (البخارى في فضائل القرآن : ٢٢٣/٦) .

ونقل السيوطي عن السخاوي قوله : (وقوارع القرآن الآيات التي يتعوذ بها ويتحصن ، سميت بذلك لأنها تفرع الشيطان وتقمعه كآية الكرسي والمعوذتين) (الإتقان : ٢٠١/١) ، أما كلمة (القواقل) التي ذكرها المؤلف فلم نعثر عليها في الحديث النبوي ومصادره .

(٣) مقطع الفلق (حسد) مناسب لفواصل الإخلاص (أحد ، الصمد ، أحد) ومقطع تبت (مسد) وكلها متفقة في الوزن .

(٤) واسمه : « مفاتيح الغيب » .

مناسبات هذه السور ، فقال في سورة الكوثر ^(١) :

اعلم أن هذه السورة كالمتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها .

أما الأول ، فلأنه تعالى جعل سورة « الضحى » في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفصيل أحواله ، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (٣) وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ (الضحى : ٣ - ٥) ، ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحواله فيما يتعلق بالدنيا ، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ (الضحى : ٦ - ٨) .

ثم ذكر في سورة « ألم نشرح » أنه شرفه بثلاثة أشياء : شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر .

ثم شرفه في سورة « التين » بثلاثة أنواع [من التشریف] ^(٢) : أقسم ببلده ، وأخبر بخلاص أمته من الناس بقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ووصولهم إلى الثواب ^(٣) بقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (التين : ٦) .

وشرفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع : ﴿ اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ (العلق) ، وقهر خصمه بقوله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ (٧) سَدَّعُ الزَّانِيَةَ ﴿ (العلق : ١٧ ، ١٨) وتخصيصه بالقرب في قوله : ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (العلق : ١٩) .

وشرفه في سورة « القدر » بليلة القدر ، وفيها ثلاثة أنواع من الفضيلة : كونها خيراً من ألف شهر ، وتنزل الملائكة والروح فيها ، وكونها سلاماً حتى مطلع الفجر .

(١) كلام السيوطي المنقول من تفسير الرازي فيه اختصار هنا .

(٢) ما بين المعقوفين من تفسير الرازي .

(٣) في (ظ) : « ورفع له بالثواب » وهى كذلك في تفسير الرازي .

وشرّفه في (لم يكن) بثلاثة أشياء : أنهم خير البرية ، وجزاؤهم جنات ، ورضى عنهم .

وشرّفه في «الزلزلة» بثلاثة أنواع : إخبار الأرض بطاعة أمته ، ورؤيتهم أعمالهم ، ووصولهم إلى ثوابها حتى وزن الذرة .
وشرّفه في (العاديات) بإقسامه بخيل الغزاة من أمته ، ووصفها بثلاثة صفات .

وشرّفه في (القارعة) بثقل موازين أمته ، وكونهم في عيشة راضية ، ورؤيتهم أعداءهم في نار حامية .

وفي (ألهاكم التكاثر) ، هدد المعرضين عن دينه بثلاثة : يرون الجحيم ، ثم يرونها عين اليقين ، ويسألون عن النعيم .

وشرّفه في (العصر) بمدح أمته بثلاثة : الإيمان ، والعمل الصالح ، وإرشاد الخلق إليه ، وهو : التواصي بالحق والصبر .

وشرّفه في سورة (الهمزة) بوعيد عدوه بثلاثة أنواع من العذاب^(١) : ألا ينتفع بدينه ، وينبذ^(٢) في الحطمة ، ويغلق عليه .

وشرّفه في سورة (الفيل) أن رد كيد عدوه بثلاث : بأن جعله في تضليل ، وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ، وجعلهم كعصف مأكول .

وشرّفه في سورة (قريش) [بأن راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه]^(٣) : تألف قومه ، وإطعامهم ، وأمنهم .

وشرّفه في (الماعون) بدم عدوه بثلاث : الدناءة ، واللؤم في قوله :

(١) في المطبوعة : «أشياء» ، والمثبت من تفسير الرازي .

(٢) في المطبوعة : «ويعذبه» ، وفي (ظ) : «ويقيد» ، والمثبت من تفسير الرازي .

(٣) في المطبوعة : «بثلاث» وما بين المعقوفين إضافة لازمة من تفسير الرازي .

﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يُدْعُ آلَيَّيْهِ ۖ وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴾
 (الماعون : ٢ ، ٣) وترك تعظيم الخالق في قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾
 الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ (الماعون : ٤ - ٦)
 وترك انتفاع^(١) الخلق في قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (الماعون : ٧) .

فلما شرفه في هذه السور بهذه الوجوه العظيمة قال : ﴿ إِنَّا
 أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أى : هذه الفضائل المتكاثرة المذكورة في هذه
 السور ، التى كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ، فاشتغل
 أنت بعبادة ربك ، إما بالنفس ، وهو قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ (الكوثر : ٢)
 وإما بالمال و هو قوله ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ وإما بإرشاد العباد إلى الأصلاح ، وهو
 قوله : ﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (الكافرون : ١ ، ٢)
 الآيات ، فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها .

وأما كونها كالأصل لما بعدها فهو : أنه تعالى يأمره بعد هذه أن يكف
 عن أهل الدنيا جميعاً بقوله : ﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ إلى آخر السورة ،
 ويبطل أديانهم^(٢) ، وذلك يقتضى نصرهم على أعدائهم ؛ لأن الطعن
 على الإنسان فى دينه أشد عليه من الطعن^(٣) فى نفسه وزوجه^(٤) ،
 وذلك مما يجبن عنه كل أحد من الخلق ، فإن موسى وهارون أرسلا إلى
 فرعون واحد فقالا : ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ (طه : ٤٥)
 ومحمد صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الخلق جميعاً ، فكأن كل واحد من
 الخلق كفرعون بالنسبة إليه ، فدبر الله فى إزالة الخوف الشديد تدبيراً
 لطيفاً ، بأن قدم هذه السورة ، وأخبر فيها بإعطائه الخير الكثير ، ومن

(١) فى المطبوعة : « نفع » وفى (ظ) : « انفاع » ، والمثبت من تفسير الرازى .

(٢) فى المطبوعة : « أذاهم » تحريف ، والمثبت من (ظ) وهو فى تفسير الرازى .

(٣) فى تفسير الرازى : « الفسق » .

(٤) فى تفسير الرازى : « أرواحهم وأموالهم » .

جملته أيضًا : الرئاسة ، ومفاتيح الدنيا ، فلا يلتفت إلى ما بأيديهم من زهرة الدنيا ، وذلك أدعى إلى مجاهرته^(١) بالعداوة ، والصدع بالحق ، لعدم تطلعه إلى ما بأيديهم .

ثم ذكر بعد سورة (الكافرين) سورة (النصر) فكأنه تعالى يقول : وعدتك بالخير الكثير ، وإتمام أمرك ، وأمرتك بإبطال أديانهم ، والبراءة من معبوداتهم^(٢) ، فلما امتثلت أمرى أنجزت لك الوعد بالفتح والنصر ، وكثرة الأتباع ، بدخول الناس في دين الله أفواجًا .

ولما تمَّ أمر الدعوة والشرية ، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن وذلك أن الطالب إما أن يكون طلبه مقصورًا على الدنيا ، فليس له إلا الذل والخسارة والهوان ، والمصير إلى النار ، وهو المراد من سورة (تبت) وإما أن يكون طالبًا للآخرة ، فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التي تنتقش فيها صور الموجودات .

وقد ثبت أن طريق^(٣) الخلق في معرفة الصانع على وجهين : منهم من قال : أعرف الصانع ، ثم أتوسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق الأشرف ، ومنهم من عكس^(٤) ، وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه المكرم بتلك الطريقة التي هي أشرف ، فبدأ بذكر صفات الله ، وشرح جلاله ، في سورة (الإخلاص) ، ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في (الفلق) ، ثم ختم بذكر مراتب النفس

(١) في المطبوعة : « مجاهدتهم » ، والمثبت من تفسير الرازي وكذا في (ظ) .

(٢) في (ظ) : « معبودهم » .

(٣) في (ظ) : « طرائق » .

(٤) طريق الجمهور يترتب عليه : أن تكون المخلوقات دليلًا على وجود الخالق ، وطريق الخاصة يترتب عليه أن يكون الله دليلًا على وجود خلقه ، الأول معرفة صعودية ، والثاني معرفة نزولية .

الإنسانية في (الناس) ، وعند ذلك ختم الكتاب . فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة [المُودَعَة] ^(١) في كتابه المكرم ! هذا كلام الإمام ^(٢) .

ثم قال في (الفلق) : سمعت بعض العارفين يقول : لما شرح الله سبحانه أمر الإلهية في سورة (الإخلاص) ، ذكر هاتين السورتين عقبها في شرح مراتب الخلق على ما قال : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ^(٣) .

فعالم الأمر كله خيرات محضة ، بريئة عن الشرور والآفات [و] ^(٤) أما عالم الخلق فهو الأجسام الكثيفة ^(٥) ، والجثمانيات ^(٦) ، فلا جرم قال في المطلع : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ^(٧) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿ (الفلق : ١ ، ٢) .

ثم [من الظاهر أن] ^(٧) الأجسام إما أثرية أو عنصرية والأجسام ^(٨) كُلُّهَا خيرات محضة ، لأنها بريئة عن الاختلال ^(٩) والفطور ، على ما قال : ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾ (تبارك : ٣) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) وهو في تفسير الرازي .

(٢) تفسير الرازي (٨/٧٠٤) .

(٣) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٤) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

(٥) الكثيفة : أى الغليظة والشخينة ، وكثر مع الالتفاف والتراكب فهو كثيف وكثاف . انظر : «المعجم الوسيط» (كثف) (٢/٨٠٨) .

(٦) الجثمانيات : الأجسام أو الأشخاص التى لا تميل إلى الحركة . انظر : «المعجم الوسيط» (جثم) (١/١١١ ، ١١٢) ، وفي (ظ) : الأجسام «الجسمانيات» كذا ، والعبارة التى فى تفسير الرازي هى : «وإنما سُمي عالم الأجسام والجسمانيات بعالم الخلق ؛ لأن الخلق هو التقدير والمقدار من لواحق الجسم فيما كان الأمر كذلك» (٨/٧٦٢) .

(٧) ما بين المعقوفين إضافة من تفسير الرازي .

(٨) فى المطبوعة و(ظ) : «أبدية و» تحريف وناقصة ، والمثبت من تفسير الرازي .

(٩) فى المطبوعة : «الاختلافات» تحريف ، وفي (ظ) : «الاختلالات» والمثبت من تفسير الرازي .

وإما عنصرية ، فهي^(١) إما جمادات ، فهي خالية عن جميع القوى النفسانية ، فالظلمات فيها خالصة ، والأنوار عنها زائلة ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ (الفلق : ٣) .

وإما نبات ، والقوة العادلة هي التي تزيد في الطول والعمق معاً ، فهذه القوة النباتية كأنها تنفث في العقد^(٢) .

وإما حيوان ، وهو محل القوى التي تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (الفلق : ٥) .

ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية ، وهي المستعيذة^(٣) ، فلا يكون مستعاذاً^(٤) منها فلا جرم قطع هذه السورة ، وذكر بعدها في سورة (الناس) مراتب ودرجات النفس الإنسانية . انتهى^(٥) .

ولم يبين المراتب المشار إليها ، وقد بيَّنها ابن الزمكاني في أسرارهِ^(٦) فقال : إضافة « رب » إلى « الناس » تُؤذِنُ بأن المراد بالناس : الأطفال ؛ لأن الربَّ من رَبِّه يرثه ، وَهُمْ إلى التربية أَحوجُ ، وإضافة « ملك » إلى « الناس » تُؤذِنُ بإرادة الشباب به ، إذ لفظ « ملك » يؤذِنُ بالسياسة والعزة [والقوة]^(٧) ، والشبان إليها أَحوج وإضافة « إله » إلى « الناس »

(١) في المطبوعة و(ظ) : « وهي » ، والمثبت من تفسير الرازي وهو الصواب والأنسب .

(٢) في المطبوعة و(ظ) : « العقدة » والمثبت من تفسير الرازي .

(٣) في المطبوعة و« ظ » : « المستفيدة » تحريف ، والمثبت من تفسير الرازي .

(٤) في المطبوعة و« ظ » : « مستفاداً » تحريف ، والمثبت من تفسير الرازي .

(٥) انظر : « مفاتيح الغيب » (تفسير الرازي) (٢٧٢/٨) وما بعدها .

(٦) هو كتاب « نهاية التأميل في أسرار التنزيل » خط (٤٧١) تفسير تيمور بدار الكتب المصرية .

(٧) ما بين المعقوفين إضافة من (ظ) .

تؤذن بأن المراد به الشيوخ ، لأن ذاته مستحقة للطاعة والعبادة ، وهم أقرب ، وقوله : ﴿يُؤْذِنُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (الناس : ٥) يؤذن بأن المراد بالناس : العلماء والعباد ، لأن الوسوسة غالباً عن الشبهة ^(١) ، وقوله : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس : ٦) يؤذن بأن المراد بالناس : الأشرار ، وهم شياطين الإنس الذين يوسوسون لهم ، والله تعالى أعلم ^(٢) .

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه

قال مؤلفه - نفعنا الله ببركاته ، وأمدنا من نفحاته - : فرغت من تأليفه يوم الأحد ، الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) لطيفة : قال الإمام الرازي في تفسيره : « إن المستعاذ به في سورة الفلق مذكور بصفة واحدة وهي : أنه رب الفلق ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهي : الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ، وأما في هذه السورة (الناس) فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث وهي : الرب ، والملوك ، والإله ، والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهي الوسوسة ، والفرق بين الموضوعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب ، فالمطلوب في السورة الأولى (الفلق) : سلامة النفس والبدن ، والمطلوب في السورة الثانية (الناس) : سلامة الدين ، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين - وإن قلت - أعظم من مضار الدنيا - وإن عظمت - ، انظر : « مفاتيح الغيب » للرازي (٨/ ٧٦٣ - ٧٦٤) ، و« كشف المعاني في التشابه المثاني » لابن جماعة (٤٣٣ - ٤٣٤) ، « ونظم الدرر » (٣/ ٣١٠) .

(٢) ذكر تاج القراء الكرمانى هذه المعانى مختصرة في « أسرار التكرار في القرآن » ص ٢١٥ ، ولم ينسبها إلى أحد ، ولم يشر ابن الزملكاني إلى الكرمانى رغم تأخره عنه .

الفهارس الفنية

فهرس الحديث النبوى والآثار

٤٤	إنَّهْن من العِناق الأول	أعطيت مكان التوراة السبع
٨٤	البقرة سنام القرآن ..	٤٤ الطوال ..
٦٢	التأمين فى آخر سورة البقرة	اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل
	سبحان الذى وسع سمعه	٧٤ - ٤٣ عمران ..
١٣٨	الأصوات ..	أن الأنعام شيعها سبعون ألف
٥٥	الصرط المستقيم كتاب الله	٨٤ ملك ..
	ضعوا هؤلاء الآيات فى	إن التوراة كلها فى خمس عشرة
٨٩	السورة ..	١٠٣ آية ..
٤٥	طراً على حزى من القرآن	أن الحواميم نزلت عقب الزمر
٦١	فسطاط القرآن ..	١٣٠ ..
	قدمتا وألَّف القرآن على علم	١١٨ أن الشعراء نزلت ثم طس
٤٦	ممن ..	١٤٩ أن المدثر نزلت عقب المزمل
	كان يعرض النبى ﷺ على	٨٥ إن رحمتى سبقت غضبى ..
٤٢	جبريل ..	١٤٢ - ١٤١ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ
١٣٤	كذبت اليهود ..	١٤٣ - ١٤٢ أن سورة التغابن نزلت عقب
٤٥	كيف تحزبون القرآن ..	١٠٨ أن طه نزلت بعد سورة مريم
٨٥	لما فرغ الله من الخلق وقضى	٩٦ أن يونس نزلت ثم هود ..
	ما حلكم على أن عمدتم إلى	١٦٤ إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة
٨٨	الأنفال ..	٤١ أنه أمرهم أن يتابعوا الطول
	من سره أن ينظر إلى يوم	أنه صلى الله عليه وسلم صلى
١٥٣	القيامة ..	٤٤ - ٤٣ بالسبع الطوال ..
	نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن	أنه صلى الله عليه وسلم كان
١١٠	الدنيا ..	٤٤ إذا أوى ..
١٠٣	هن من العناق الأول ..	أنه لما نزلت : ﴿وما أوتيتم
٨٩	وضع الأنفال وهى قصيرة	من العلم إلا قليلاً﴾ قال
١٦١	يا محمد ألم أجذك ..	اليهود ..
١٥٥	يقوم أحدهم فى رشحه ..	١٥٣ أنها عقب سورة عم ..

فهرس الأعمام

١٦٤	أبو بكر بن العربى	(أ)	
٥٠	البيضاوى	٦٧ - ٧٢	آدم (عليه السلام)
٤٣ - ٤٧ -	البيهقى	٨٦ - ١٠٨	
٨٨ - ٤٩		١٢٨ - ١٥٠	
(ت)		١٤٤	آسية
٨٨ - ٧٩	الترمذى	٥٩ - ٩٦	إبراهيم
(ث)		١٠٨ - ١٠٩	
١٣٤	ثابت بن الحارث	١١٦ - ١٢٧	
(ج)		٤١ - ٤٧	أبى بن كعب
		٤٨ - ٩١	
٩٦ - ١٠٨ -	جابر بن زيد	١٢٩	
١١٨ - ١٣٠ -		٤٤ - ٤٥	أحمد بن حنبل
١٤٩		٨٤ - ٨٨	
٤٢	جبريل (عليه السلام)	٥٩ - ٩٦	إسحاق (عليه السلام)
١٠٣	ابن جرير	٥٩ - ١٠٩	إسماعيل (عليه السلام)
٤٤	أبو جعفر النحاس	٤١ - ٤٦	أشنة
٤٣	أبو جعفر بن الزبير	١٢٧	إلياس
(ح)		٤٥	أوس الثقفى
١٦١ - ١٣٤	ابن أبى حاتم	١٠٨ - ١٢٧	أيوب (عليه السلام)
٨٨ - ٥٥	الحاكم	(ب)	
٨٨	ابن حبان	٤٤ - ١٠٣	البخارى
٤٥	ابن حجر	١٦٠	أبو بكر الصديق <small>عليه السلام</small>
٤٩	الحسن البصرى	٤١ - ٤٢	أبو بكر (القاضى)
٤٣	ابن الحصار	٤٢	أبو بكر بن الأنبارى

(ط)

١٤١ - ٨٤	الطبراني
٥٠ - ٤٢	الطبي

(ع)

١٣٨	عائشة (رضي الله عنها)
- ٨٨ - ٤٦	ابن عباس <small>رضي الله عنه</small>
- ٩٦ - ٨٩	
- ١٠٨ - ١٠٣	
- ١٣٠ - ١١٨	
- ١٤٧ - ١٤٢	
١٥٣ - ١٤٩	
١٦٢	أبو العباس المرسى
- ٤٧ - ٤١	عثمان بن عفان <small>رضي الله عنه</small>
- ٨٩ - ٨٨	
٩٠	
١٦٢	ابن عطاء الله السكندري
٤٣	ابن عطية
- ٧٢ - ٦٧	عيسى (عليه السلام)
- ١٠٨ - ١٠٧	
١٤١	

(غ)

٥١	الغزالي
----	---------

(ف)

٤١	ابن فارس
- ١٠٣ - ٩٤	فرعون
- ١١٩ - ١٠٤	
- ١٤٤ - ١٢٠	
١٧٦ - ١٤٥	

(خ)

١٠٧ - ١٠٦	الخضر
١٦٣	الخطابي
٥٥	الخوي

(د)

- ١١٨ - ١٠٨	داود (عليه السلام)
١٢٧	
٨٨ - ٤٥	أبو داود

(ذ)

١٠٧ - ١٠٥	ذی القرنين
١٠٨	ذی الكفل
١٠٨	ذی النون

(ر)

- ١٥٦ - ٤٩	الرازي (فخر الدين)
- ١٦٩ - ١٦٥	
١٧٣ - ١٧٠	
٤٦	ربيعة

(ز)

١٠٩ - ١٠٨	زكريا (عليه السلام)
٤٩	الزخشري

(س)

٤٣	سعيد بن خالد
- ١١٨ - ١٠٨	سليمان (عليه السلام)
١٢٧	

(ش)

١١٦	شعيب (عليه السلام)
-----	--------------------

١٢٧ - ١٤٠ -

١٧٦

(ن)

٦٠

النجاشي

٨٨

النسائي

٩٥ - ٨٦ -

نوح (عليه السلام)

٩٨ - ١٠٨ -

١١٦ - ١٢٧ -

١٣٥ - ١٤٥ -

١٤٧

(هـ)

١٠٩ - ١١٦ -

هارون (عليه السلام)

١٢٧ - ١٧٦

١٤١

أبو هريرة رضي الله عنه

(و)

١٣٤

الواحدى

(ى)

يحيى بن زكريا

١٠٧ - ١٠٨ -

(عليه السلام)

٥٩ - ٩٦ -

يعقوب (عليه السلام)

١٤٩

ابن الفريس

(ك)

٤٢ - ١٣٠ -

الكرمانى

(ل)

١٠٨ - ١١٦ -

لوط (عليه السلام)

١١٨ - ١٢٧ -

١٤٥

(م)

٤١

مالك

٦٧ - ٧٤ -

مريم بنت عمران

١٠٩ - ١٤٤ -

٤٤ - ٤٧ -

ابن مسعود رضي الله عنه

٤٨ - ٥٥ -

٧٢ - ٩٢ -

١٠٣

٤٣

مسلم

١٣٤

ابن المنذر

١٠٣ - ١٠٦ -

موسى (عليه السلام)

١٠٧ - ١٠٨ -

١٠٩ - ١١٦ -

١١٨ - ١١٩ -

فهرس أسماء الكنب

١٢١ ، ٣٨	أسرار التنزيل (قطف الأزهار في كشف الأسرار) ، للسيوطى
٤٢	البرهان [فى توجيه متشابه القرآن . .] ، للكرمانى
٨٨	الدلائل ، للبيهقى
٥١	خواص القرآن ، للغزالى
٤٩	شعب الإيمان ، للبيهقى
١٣٠	عجائب القرآن ، للكرمانى
١٦٢	لطائف المنن ، لتاج الدين بن عطاء الله السكندرى
٤٣	المدخل [إلى السنن الكبرى] ، للبيهقى
٤١	المصاحف ، لابن أشتة

* * *

- المطالب العالية فى زوائد المسانيد الثمانية ، لابن حجر .
- معانى القرآن ، للنحاس ، ت : محمد على الصابونى - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- مفاتيح الغيب (المشتهر بالتفسير الكبير) ، للإمام الرازى ، وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود - القاهرة - ١٢٨٩هـ .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى - القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٤٩م .
- نظم الدرر فى تناسق الآيات والسور ، لبرهان الدين إبراهيم البقاعى - بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- نكت الانتصار لنقل القرآن ، للباقلانى .
- وجيز الكلام فى الذيل على دول الإسلام ، للسخاوى ، ت : بشارعود ورفاقه - بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، ت : محمد محى الدين - القاهرة ١٩٤٨م .
- يتيمة الدهر ، للثعالبى ت : محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥٦م .

* * *

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٢	سورة النور	٣	تقديم
١١٣	سورة الفرقان	١٠	نبذة عن مصحف عثمان <small>رضي الله عنه</small>
١١٦	سورة الشعراء	١٣	عملنا في الكتاب
١١٨	سورة النمل	١٤	عظمة القرآن ووحده الموضوعية
١١٩	سورة القصص	٣٦	ترجمة الإمام السيوطي
١٢٠	سورة العنكبوت	٣٧	مقدمة المؤلف
١٢١	سورة الروم	٤١	مقدمة في ترتيب السور
١٢٢	سورة لقمان	٤٩	سورة الفاتحة
١٢٣	سورة السجدة	٥٣	سورة البقرة
١٢٤	سورة الأحزاب	٦٣	سورة آل عمران
١٢٤	سورة سبأ	٦٩	سورة النساء
١٢٥	سورة فاطر	٧٥	سورة المائدة
١٢٦	سورة يس	٨٠	سورة الأنعام
١٢٧	سورة الصافات	٨٦	سورة الأعراف
١٢٧	سورة ص	٨٨	سورة الأنفال
١٢٨	سورة الزمر	٩٣	سورة براءة
١٢٩	سورة غافر	٩٤	سورة يونس
١٣١	سورة القتال	٩٥	سورة هود
١٣٢	سورة الفتح	٩٦	سورة يوسف
١٣٢	سورة الحجرات	٩٧	سورة الرعد
١٣٣	سورة الذاريات	٩٨	سورة إبراهيم
١٣٣	سورة الطور	٩٩	سورة الحجر
١٣٤	سورة النجم	١٠١	سورة النحل
١٣٥	سورة القمر	١٠٣	سورة بني إسرائيل
١٣٦	سورة الرحمن	١٠٥	سورة الكهف
١٣٧	سورة الواقعة	١٠٧	سورة مريم
١٣٨	سورة الحديد	١٠٨	سورة طه
١٣٨	سورة المجادلة	١١٠	سورة الأنبياء
١٣٩	سورة الحشر	١١١	سورة الحج
١٤٠	سورة الممتحنة	١١١	سورة المؤمنون

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٨	سورة الفجر	١٤٠	سورة الصف
١٥٨	سورة البلد	١٤٠	سورة الجمعة
١٥٩	سورة الشمس والليل والضحي	١٤١	سورة المنافقون
١٦١	سورة ألم نشرح	١٤٣	سورة التغابن
١٦١	سورة التين	١٤٤	سورة الطلاق
١٦٣	سورة العلق	١٤٤	سورة التحريم
١٦٣	سورة القدر	١٤٥	سورة تبارك
١٦٤	سورة لم يكن	١٤٦	سورة ن
١٦٥	سورة الزلزلة	١٤٦	سورة الخاقعة
١٦٦	سورة العاديات	١٤٧	سورة سأل
١٦٦	سورة القارعة	١٤٧	سورة نوح
١٦٧	سورة التكاثر	١٤٨	سورة الجن
١٦٧	سورة الفيل	١٤٨	سورة المزمل
١٦٨	سورة قريش	١٤٩	سورة المدثر
١٦٨	سورة الماعون	١٤٩	سورة القيامة
١٦٩	سورة الكوثر	١٤٩	سورة الإنسان
١٦٩	سورة الكافرون	١٥١	سورة المرسلات
١٦٩	سورة النصر	١٥٢	سورة عم
١٧١	سورة تبت	١٥٣	سورة النازعات
١٧٢	سورة الإخلاص	١٥٣	سورة عبس
١٧٣	سورة الفلق والناس	١٥٣	سورة التكويد
١٨١	الفهارس الفنية	١٥٤	سورة الانفطار
١٨١	فهرس الحديث النبوى والآثار	١٥٤	سورة المطففين
١٨٢	فهرس الأعلام	١٥٦	سورة الانشقاق
١٨٥	فهرس أسماء الكتب	١٥٦	سورة البروج والطارق
١٨٦	أهم المصادر والمراجع	١٥٧	سورة الأعلى
١٩١	فهرس الكتاب	١٥٧	سورة الغاشية

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٠٢ / ٢١٥١

دار النضر للطباعة والإعلامية

٢ - شارع فستاطى شعبرا القشاهدة

الرقم البريدى - ١١٢٣١